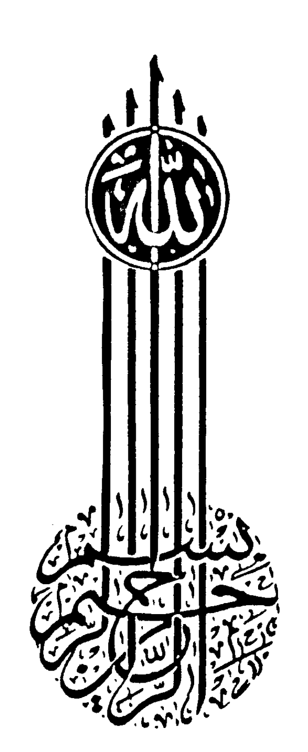
قصر ثقافة بور فؤاد

# سقطة في زمن السيد يغمور

رواية

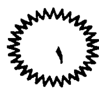
تأليف :
عادل القنصل




الله
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

# سقطة..في زمن السيد يغمور



١

المتجر..لبيع الأقمشة بشتى أنواعها..يشبه الوكالة..يقـــع في أحـــد الشوارع الضيقة خلف ميدان المنشية بالإسكندرية تتصدر واجهتـــه لافتة كبيرة بعـــرض المحـــل..مكتـــوب عليـــها "تجـــارة المليـــح للأقمشة"ويوجد خلف تلك الكتابة حروف باليونانية مطموسة يظهر منها لمن يدقق النظر تاريخ ١٩٠٢ بالحروف اليونانية مـــن عمـــر العمارة الكائن بها المحل..صاحب المتجر "السيد السيد المليح"..يعاونه ابنه الصغير "كوت شوك"..هذا اســـم التدليـــل..اسمـــه الأصلـــي "رضوان"..في السادسة عشرة..لم يكمل تعليمه وخرج بعد أن اجتاز امتحان القبول..ليعاون أباه في تجارته..لا يرضى على شـــكل المحـــل العتيق..كم تمنى أن يجدده ويزينه بالديكورات الحديثة أسوة بـالمحلات المجاورة..لكن الأب يرفض رفضاً تاماً..,يحب شكله القديم وروائحـه التي يشتمها وحده..يقول أنها روائح عبق التاريخ."رضوان" غير راض عن طريقة أبيه في تجارته..هكـــذا يكـــون صـــراع الأجيـــال..ولا

يرضى أيضاً عن اسم التدليل "كوت شوك"..يناديه به أبوه دون أن يعرف معناه..وهكذا أخوه "تشابوق" واسمه الأصلي "سالم"..وأخته "يلديز" واسمها "رضا"..والزوجة "جوموش"..هي أيضاً غير راضية عن الاسم الذي يدللها به زوجها..اسمها الأصلي "جمالات"..لم يعرف أحد من أفراد الأسرة سبب تلك الأسماء التي يناديهم بها..هو أيضاً لا يعرف..لكنها أسماء تلح على ذهنه وذاكرته دون أن يعرف السبب..هو الآخر..سمى نفسه "يغمور"..من قبيل التدليل..لا أحد من أسرته يناديه بهذا الاسم..لا يحبون تلك الأسماء..ولكن أصدقاؤه وجيرانه ينادونه "بالحاج يغمور".



له خط سير يومي لم يتغير مع الزمن..الاستيقاظ قبل الفجر..يركب سيارته "الدودج" موديل ١٩٤٠..التي اشتراها له والده صاحب المتجر ومازالت محتفظة بحالتها..يجددها كل عام تجديداً شاملاً..الأولاد يرفضون ركوبها..ويفضلون ركوب "التاكسي" لقضاء مصالحهم أو التوجه لمكاتبهم..يتوجه لجامع المرسي أبو العباس لأداء صلاة الفجر..ثم يذهب لفتح متجره..ويحضر ابنه "رضوان" في

صباحاً..يومياً تحدث بينهم مشادة على استيقاظه متأخراً..دائماً يسأل إمام المسجد سؤالاً يحيره:

-هو ممكن يا مولانا الإنسان يعيش اكتر من مرة؟

الوجوم يصيب إمام المسجد حينما يسمع السؤال ويصمت ثم يتمتم بصوت خافت:

-أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..استهدي بالله يا حاج واستغفر ربك..و لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوءكم.

كل مرة يتركه في حيرة..هو أيضاً لا يعرف سبب إلحاح هذا الأمر على ذهنه..يركب سيارته قبل آذان الظهر ويتوجه للزاوية القريبة ليؤدي فريضة الظهر..ثم يكرر هذا الأمر في فريضة العصر..ثم يتوجه لمنزله بمفرده في سيارته حيث يقيم في فيلا قديمة..كان الأب يملكها وورثها عنه..فهو الوحيد لأبيه..يتناول الغذاء بمفرده..الآكلات التي يرغبها تطهيها له زوجته "جمالات"..وأولادها لهم طعام آخر..آكلاته التي اعتاد عليها..ربما تكون تركية أو مملوكية..خاصة "أم علي"..الذي يأكله كل يوم كصنف حلو..لا يمل من تناوله..ولا يعرف سبب إقباله على هذه الآكلات..ثم يدخل ينام ويستيقظ عند

المغوب..ثم يذهب للمتجر ليلاً..ويصلي العشاء في "أبو العبـاس"..ثم يتوجه لمجالسة أصدقائه ممن هم في سنه في مقهى يوناني قديم..مرتفـع عن الأرض حوالي المتر..كان يملكه الخواجة "استاولو"..يقع في شارع صفية زغلول..الجلسة لا تخلو من الضحـك والدعابـة وتقليـب الذكريات التي دائماً يتوقف عندها ويسرح ويقول لهم:

-بس أنا عندي ذكريات ثانية فاكر أني عشتها..بس إيه هي وامتى..مش قادر اجمعها في دماغي.

ينظرون له في دهشة..وينظرون لبعضهم فيضحك ويقول لهم مؤكداً:

-أنا لسه دماغي صاحية..بس أنا بأحب اهزر معاكم.

يحضر "درويش"..بصندوقه الخشبي المزركش ويطلب منه وضع قدمه على الصندوق حتى يلمع له حـذاءه..في الليـل يعـود ليتنـاول عشاءه..ثم ينسخ بعض المواد الدراسية لابنته "رضا"..وهي في نهايـة المرحلة الجامعية بكلية الآداب قسم تاريخ..دائماً ينقل لهـا مـواد الدراسة بخط منسق ومنمق جميل..علماً بأن إلمامه بالقراءة والكتابـة محدود.

يشاهد الصور التي يلتقطها ابنـه الأكـبر "سـالم" خريـج كليـة الهندسة..ويهوى التصوير والرسم ويعمل مهندساً بمصلحة المساحة.

ينام في الثانية عشرة ليلاً..زوجته تسمعه دائماً يهذي بكلمات وعبارات غير مفهومة..أحيانا تفزعها فتذهب لتنام بجوار ابنتها "رضا"..فكرت أن تعرضه على أحد المشايخ الطيبين ولكنه يرفض رفضاً مطلقاً ويقول لها:

–ده شغل نصب ودروشة يا ولية..انتي فاكراني طاقق ولا ايه.



مشواره الأسبوعي له سمته الخاصة..يوم الجمعة..يخرج من بيته بعد أن يتناول طعام مع أولاده..هذه الوجبة الوحيدة التي يجتمعون لتناولها معاً..ثم يركب سيارته ويتوجه لورشة "رشيدي"..ورشة لمصنوعات الارابيسك الخشبية..يصطحبه معه ويؤديان صلاة الجمعة..ويعودان للورشة..كان "رشيدي" قبل أن يتعرف على "السيد" يغلق المحل يوم الجمعة..اصبح يغلقه يوم الاثنين..يدخل "السيد" ويرتدي "عفريته" التي يغسلها له "رشيدي" كل أسبوع..ويبدأ في العمل كأحسن صنايعي..يستغرق ذلك منه أربع ساعات تقريباً..ينهك خلالها في العمل.."رشيدي" دائماً ينظر له بإعجاب..يتذكر أول مرة من عشرة أعوام حينما حضر له "السيد" ليشاهد تلك الصناعة التي احبها دون

أن يعمل بها..ابهر "رشيدي" عندما بدأ العمل اول مرة..فهو يعــرف كل مصطلحات الصنعة وأدواتها..سأله "رشيدي" مرة:

-معقول يا حاج سيد..إن دي أول مرة تشتغل فيــها الصنعــة دي.

يقسم الحاج "سيد"..إنها المرة الأولى ثم يصمت ويسرح وما إن بفيــق يقول في ذهول:

-بس متهيألي اني اشتغلتها قبل كده..امــتى وفــين وازاي مــا اعرفش؟!

"السيد" يقوم بهذا العمل دون مقابل..بل انه يغدق على "رشيدي" في المناسبات مثل غرة رمضان والأعياد والمواسم الدينية كمولد النــبي وعاشوراء..وأحياناً ينظر "لرشيدي" ويقول له مازحاً:

-أنا عارف انك بتحبني..وانا باحبك كمــان..بــس بــأحس ساعات انك بتاخدني على قد عقلي

يضحك "رشيدي" ويقبل جبهته ويقول في تأكيد:

-طب يا ريت يبقى عقلي زي عقلك.

هذا الامر وتلك العلاقة بينهما..هي الوحيدة التي تخفى عن اســرته

أراد أن يحتفظ بها سراً بينه وبين نفسه.

٤

ذات يوم ذهب إليه "رشيدي" في متجره..فأثار حفيظته وسأله في دهشة:

-فيه إيه يا رشيدي..انت عاوز الواد كوت شوك ابني يفتح لي محضر ويسألني انت مين وأعرفك منين.

قال له أن أمراً قد يهمه هو الذي اضطره للحضور عنده..سوف يسافر لشراء "لوط" خشب أرابسك من رشيد..بلدة جدوده..وظن أن هذا المشوار سيجد في نفس "السيد" هوى..وبالفعل كانت فرحة "السيد" لا تقدر..وأبدى رغبة وموافقة على اصطحابه حتى مدينة رشيد.

٥

المرة الأولى التي يترك فيها المتجر لأبنه "رضوان" أو كوت شوك..الذي أبدى فرحته لإدارة المحل دون التدخل من والده..حتى لو كان ذلك يوماً واحداً.يوم الاثنين..مر "السيد" على "رشيدي" بمترله بالانفوشي..هذا المكان يروق له بمبانيه العتيقة وروائحه

المميزة..كان بيت جده الذي لم يره في أحد شوارعه الضيقة.
توجها بسيارة "السـيد" إلى مدينة رشـيد..المدينة التاريخية الإسلامية..بهرته..ظن انه عاش في تلك المنطقة أو ما يشابها من قبل..بهره المبنى الذي تم هدمه وما استخرج من مصنوعات خشبية نادرة..لفت نظره توقيع صانعها على الأرابسك الخاص بالشرفات..المعلم "دقماق" في شهر يناير ١٨٩٠..شعر انه جاب تلك الفترة التاريخية بكل حواسه..اتفق مع "الرشيدي" على شراء تلك المصنوعات الخشبية حتى يصنع له منها "برجولا" أعلى سطح فيلته..التي بنيت في نفس التاريخ تقريباً..ومازالت محتفظة برونقها..وهي من تنفيذ وتصميم ... مهندس يوناني..كان يقيم فيها..قبل أن يشتريها والده في مايو ١٩٢٢ يوم أن رزق بمولوده الأول والأخير "السيد".دائماً يجتر ذكريات طفولته في تلك الفيلا التي تمنى أن يقيم في مثلها..ولكن ما يحزنه..ارتباط شرائها بمرض أمه التي ولدته بعد صبر طال.."السيد"..كان المولود المنتظر من سنين طويلة..حملت به أمه وهي في سن الأربعين من عمرها..كان والده وقتها في الخمسين..أرهقت أمه بهذا الحمل في تلك السن..المرض الذي لازمها فترة طويلة وعجز الأطباء عن

علاجه..ووالده توفي عن الثمانين عاماً.

٦

تم شحن الأخشاب إلى سطح فيلا "السيد يغمور" مما اثار دهشة أسرته فهو دائماً يتصرف بطريقة لا ترضيهم جميعاً..قالت زوجته في عصبية:

–هو انت كل شوية هتطلع لنا بتقليعة يا حاج سيد.

ينظر لهم ويبتسم..يشعر انه انتصر عليهم..رغبته تنفذ دائماً وهم صاغرون..فهذه صفة من صفاته "العناد".

ما إن انتهى "رشيدي" من تجهيز سطح الفيلا بتلك "البرجولا"..التي صممها "السيد"..بل انه كان يساعده أحياناً مما يثير دهشة أسرته..أين ومتى وكيف تعلم النجارة.

٧

عادت ابنته ووجهها مزدرد..وقد انتابتها حيرة لم تمر بمثلها من قبل..ومعها كتاب..اطلعت أمها عليه فلم تفهم ماذا تقصد..ثم اطلعت أخويها..اللذان أبديا دهشة باللغة..إنها اللغة التي يتكلم بها

الأب أحياناً..اللغة التي كانوا يظنون أنها من قبيل الدعابة..إنها لغة معروفة ولها قواعدها وأصولها.

انتظرت عودة أبيها مساءً من المقهى..وأطلعته على الكتاب..وما إن رآه..ظل ينظر متأملاً حروف تلك اللغة في دهشة..ثم اطرق..نظرت له ابنته والتزمت الصمت..ثم باغتته سائلة:

–انت تعرف اللغة دي..دي لغة تركي قديمة..بيسموها الكتابة العثمانية.

نظر لها في وجوم وكأنه اُستدُرج لعالم آخر..وكأنه في لحظات غير التي يحياها وقال لها وهو واجم:

–ما اعرفش يا رضا يا بنتي..ما اعرفش.

قالت له إن عليها أن تدرسها..حتى تستطيع قراءة الوثائق العثمانية..موضوع دراستها في التاريخ يتعلق بتلك الفترة..قالت له وهي تحاوره بعد ما أحست انه تاه في عالم آخر..أن حروفها قد تغيرت إلى حروف لاتينية..احلها "مصطفى كمال اتاتورك" محل اللغة القديمة..في بداية القرن العشرين..لتقترب من اللغات الأوربية مما يسهل فهمها والكتابة بها لأبناء الترك..شعر الرجل بدوار..ثم مشى مترنحاً حتى دخل حجرته وألقى بنفسه على السرير بملابسه.

٨

لم ينم ليلته..جسده يرتعش على فراشه..الزوجة اعتادت مثل هـــذه المواقف..ولكنها هذه المرة قد زادت عن حدها..اســـتدعت ابنتـــها "رضا"..جلستا على الكنبة الموجودة بحجرة نومه..حاولت "رضا" أن تجد تفسير لما يقوله وهو يهذي..قال:

-البيت صغير..في حارة صغيرة..مضلم..الانفوشي..ريحـــة الخشـــــــب القـــــــــديم..البتنجـــــــــان المسلوق..جوموش..جوموش..انـــتي ســـيبتيني وروحـــتي فين..الصحرا..الحر..ضرب النار.

ثم خلد لنوم عميق..ولم يقم في ميعاده لأداء صلاة الفجر..حـــارت الأم وابنتها فيما يقول..الابنة سجلت في ورقة كل مـــا قالـــه مـــن عبارات..قررت ألا تعرض عليه أمر اللغة الجديدة التي تتعلمها.

٩

دخل عليه "كوت شوك" أو "رضوان"..سأله عما إذا كان ســـيفتح المحل اليوم من عدمه..ناوله المفاتيح في استسلام..المرة الثانيـــة الـــتي يتولى فيها ابنه فتح المتجر منذ أن الحق بالعمل معه..الابن كان فرحـــاً

في بادئ الأمر..ولكن سرعان ما تغيرت ملامح وجهه وشعر بالخوف..ليس من مسئوليته إدارة تجارة أبوه..لكن..هذه الحالة لم تحدث له من قبل.

قام وقت آذان الظهر..متكاسلاً وتوجه للحمام ليتوضأ..كاد يتعثر في السجادة الموجودة بحجرته..أدى صلاته وعاد للنوم مرة أخرى..واستيقظ عصراً ليتناول غذائه..أمره اقلق جميع أفراد أسرته.."رضا" في حيرة.. استرجعت ما دار بينهما حين أطلعته على كتاب اللغة العثمانية..ما الذي جعله يتغير لهذا الحد؟!

١٠

نسى..أو تناسى..حياته تسير بطريقة طبيعية..حياته التي تؤرقه..لغز في حياته لا يفهمه..تمنى لو فهمه..توجه ليلاً إلى المقهى ليجالس أصدقاؤه..اخبره صديقه "لطفي" أن "درويش" الورنيشجي..لم يحضر منذ أيام وعرف انه مريض..فاتفق مع أصدقائه لعمل زيارة له في بيته..عشرته بهم تتجاوز العشرين عاماً.

أصدقاؤه "لطفي" مدرس على المعاش..و"كمال أبو كمال" موظف

بالمعاش يعمل بالصرف الصحي..و"محمود الملاح" وكان يعمل صياداً..وتولى أولاده مهنته بعد أن تجاوز سن الستين من عمره.

مفاجأة..عنوان "درويش" في عمارة فخمة..دخل الأصدقاء شقته..فأصابهم وجوم وذهول..شقته على مستوى عال..أثاثها فخم..متسعة..قابلتهم زوجته..سيدة على جانب كبير من الاحترام والاحتشام..دخلوا الصالون الفخم..ظلوا يتفحصون قطع الأثاث التي يرونها في أفلام السينما..حضر "درويش" ليقابلهم مرتدياً "الروب دي شمبر"..ويبدو أنيقاً على غير مستواه المتواضع الذي تعودوا أن يرونه عليه..وقدمت الزوجة لهم التحية من أرقى أنواع الفاكهة..ثم حضر أولاده الكبار ليصافحونه..الكبير طبيب..والأوسط مهندس..والثالث يقوم بأعمال الأب التي لا يعرف أحدهم شيئاً عنها..وهي مهنته التي يمارسها إلى جانب "تلميع الأحذية"..تذكروا انه مقل في حضوره للمقهى في فترة الصيف..حيث يقف مع ابنه الصغير في محطة سيدي جابر للقاء المصطافين الذين يعرفونه منذ سنين..بعد أن يكونوا قد اجروا معه اتصالاً تليفونياً في بيته..قبل حلول الصيف..يؤجر لهم شقق في شتى أنحاء الإسكندرية..يكسب من السمسرة كثيراً.

## ١١

خرج الأصدقاء مع "السيد" وهم في ذهول..هذه المدينة العجيبة التي لا تستطيع أن تفرق فيها بين غني وفقير..لتشابه الناس في زيهم..واشتراكهم في إخفاء سر رزقهم..مدينة الأحلام..تاريخها القديم على مر العصور..اختلاطهم بالإيطاليين واليونانيين علمهم أشياء كثيرة..وهم شعب جاد.

عاد إلى حيه ليلاً..استوقفه عسكري الدرك يطلب منه كبريت لإشعال سيجارته..المرة الأولى التي يلتفت فيها إلى شرطي الدرك..نظر إليه وسرح بخياله ثم سأله:

هو فيه عسكري معاكم اسمه وديد؟

نظر له الشرطي واخذ يتذكر..أجاب بالنفي..ثم دخل فيلته وهو يحدث نفسه..لماذا سأل عن شرطي بهذا الاسم..انه عندما رأى هذا الشرطي..تذكر هذا الاسم..من هو "وديد"..انه لم يدخل أقسام الشرطة طوال حياته..إذن من هو "وديد" الذي جال بخاطره الليلة.




تناول عشاؤه في صمت..لاحظ الجميع حالته..لم يحاولوا أن يناقشوه في شيء..استبدل ملابسه وخلد إلى لنومه..الأم توجهت لقضاء

ليلتها مع ابنتها..فهي تعلم أن الليلة لن تمر على خير..قبل أن يغمض عينيه..قال من "وديد"؟!

رآه في حلمه..يركب جواده ويتجول بين الأسواق..ملامحه غريبة لم يستطع تحديدها..ملابسه مغايرة لما يراه من ملابس العسكر في هذه الأيام..يمسك كرباج في يده..يضرب به يمينة ويساراً..تفرق من في السوق عدا رجل يرتدي الملابس البلدية مثل الذي يرتديها هو..وجهه مشرب بالحمرة..ذي شارب ولحية بيضاء..نادى على "السيد" وقال له:

-ما تخافش يا سيد..العسكري وديد ما يقدرش يقرب للي زينا..ياغمور صحيح مش زي زمان..لكن لسه له شان.

قال له "السيد" وهو يرتجف..انه يخاف هذا العسكري..انه يفرض إتاوة على فقراء الباعة في الحي..انه قاسي.

ضحك العجوز وقال له:

-ما هو الزمن متغير والدنيا متلخبطة..مصر دخلها كتير..عرب..أرمن..يونان..طلاينة..وإحنا آخر اللي جينا.."وديد" جه من الصعيد..كان كلاف بهايم..هرب من الفقر في الصعيد..ومن شغلة الكلافة الشاقة عند

أسياده..عشان يجي مصر المحروسة ويبقى سيد من الأسياد..بكرة يبقى له عيلة واسمها معروف..زي عيلة "السروجي" و"الحمار" و"الغنام"..هتبقى عيلة "الكلاف" من العيلات الكبيرة..الإتاوة هتملى جيوبه ألوف..لكن نسله هيتوه مع الزمن..مهما طال ويرجع كل واحد لأصله.

استيقظ من حلمه وقد ابتل جسده عرقاً..سرعان ما سمع آذان الفجر..نهض وتوجه ليتوضأ..وقام بأداء الفريضة في غرفة نومه..ثم عاود النوم حتى الصباح وذهب لمتجره كعادته.

## ١٣

"رضا"..تقلب في صفحات كتاب اللغة العثمانية..وقع بصرها على كلمات مثلما يناديهم بها أبيهم..قرأت وعرفت معانيها.."جوموش"..وتكتب بالتركية العثمانية "كمش" ومعناها فضة.."يلدز" تكتب كما هي ومعناها نجم أو نجمة.."كوت شوك" وتكتب "كتشوك" ومعناها الصغير أو الصغيرة..أما كلمة "شابوق" وتكتب "جابوق" ومعناها سريع.

ذهلت..متى عرف أبوها هذه الأسماء التي لها معاني ولا يعرف معانيها

حتى "ياغمور" التي يلقب بها نفسه..معناها "مطر"..من أين جاء بهذه الكلمات التي لم تسمع عنها من غيره..حتى قرأت كتاب تعليم اللغة..انه لغز محير..عبارات قديمة طالما يتكلم بها الأب..وأحياناً يتغنى بها..تتمنى أن تعرف ولكنها تخشى نتائج ما تعرفه..حتى أنها قررت بين نفسها ألا تتعلم تلك اللغة..وتختار موضوعاً آخر لرسالة الماجستير..وليكن فترة تاريخ الفراعنة.

لكن الأب حضر لها مساءً..وطلب منها أن يطلع على كتاب اللغة العثمانية..تحججت أنها نسته في الجامعة..فأصابه وجوم ثم اخذ ينهرها على غير عادته بعبارات لم تفهمها..تيقنت أنها من اللغة التركية.

كان حديث أسرته ليلاً بعد ما خلد للنوم الهادئ..الأم تراجع شريط حياتها الزوجية..دائماً يهذي بعبارات غير مفهومة..هو غريب الأطوار في مأكله وأحيانا في ملبسه..يرتدي مرة الملابس الإفرنجية ومرات الملابس البلدية..قفطان من "الستان" الأبيض المقلم..يتوسطه حزام حرير لونه احمر..يعلو القفطان عباءة لونها اسود.. الطربوش..وحذاء من الجلد اللامع لونه يميل إلى البرتقالي..يصنعه له خصيصاً صانع الأحذية بحيهم.

الأسرة جميعاً قرروا أن يعرضوا أمره على طبيب.

# ١٤

الليلة الثانية..قام نشيطاً كعادته وكأن شيئاً لم يحدث..وقام بعمل مشواره اليومي المعتاد..بدءً من الصلاة بمسجد "أبي العباس" حتى متجره لحين عودته آخر النهار إلى بيته..في هذه المرة سأل إمام المسجد نفس السؤال..ولكن بصيغة أخرى..اعتاد أن يسأل..هل يمكن للمرء أن يعيش مرتين..هذه المرة سأله:

-لو سمحت يا مولانا..يا ريت تفتح لي صدرك وتسمعني من غير ما تنهرني.

نظر له الإمام نظرة خانقة وقال له متبرماً:

-إذا كنت هتسألني نفس السؤال..فاجابته مش عندي.

قال له في تردد:

-أنا عاوز ارتاح..وراحتي عندك يا مولانا..ويا ريت تجاوبني على سؤالي وتريحني..يا ترى الإنسان ممكن يكون عاش قبل كده مرة أو مرتين أو تلاتة.

نظر له الإمام وقال له بصوته الخافت المعتاد:

-ما تفكرش غير في اللي انت عايش فيه..وما تشغلش نفسك بحاجات لا تودي ولا تجيب..انت راجل مسلم..وعارف إن من يتق الله يجعل له مخرجاً.

تمنى "السيد" أن يجعل الله له مخرجاً مما يعانيه..وان كان لا يفهم بين نفسه ما هو الذي يعاني منه على وجه التحديد.



في اليوم التالي..كانت له جلسة مع ابنه شابوق "سالم"..اختلى به في حجرته وسأله في تردد:

–انت بتشتغل في المساحة..وأكيد كل حتة في إسكندرية لها خرايط عندكم.

أجابه بالإيجاب وجعل يجاريه في الحديث..ثم لاحظ أن عين أبيه تغيرت ملامحها بل أن لونها كاد يتغير من اللون العسلي إلى اللون الأخضر..فشعر برجفة في جسده..المرة الأولى التي يشعر أن أباه غريب عنه..بل انه خاف منه..ثم بادره الأب بسؤال ثاني:

–والأماكن القديمة اللي من ميت سنة أو اكتر..أكيد لها خرايط عندكم متوضح فيها البيوت اللي كانت موجودة والهدت.

أجابه في خوف وتردد:

–ايوة يا بابا..أكيد موجودة..بس أنا ماشفتهاش.

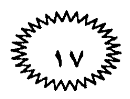
باغته الأب بطلب آثار دهشته:

-ممكن أشوفها..أنا..عاوز أشوف حي الانفوشي كان شكله إيـه من ميت سنة..ممكن يا بني.

الابن هز رأسه بالإيجـاب في تـردد..فـهو لا يريـد أن يغضـب والده..ولكن ماذا يقول لزملائه بالعمل إذا ما صمم أبوه على طلبه.

١٦

أمام إصرار الأب..احضر "سالم" صور لبعض خرائـط المسـاحة في الانفوشي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين..عرضها على الأب..لم يفهم ما بها..إنها أبعاد حسابية..طـول في عـرض في ارتفاع لأعداد لا حد لها من المباني ذات أرقام أشـبه بالألغـاز..لا يفهمها إلا العاملين في المساحة..وطلب من ابنه أن يفيده بمـا هـو موجود من تلك المساكن وما أزيل منها..اخبره الابن أنها بيانـات لا توجد إلا في مصالح أخرى كالعوائد والأملاك..وشـعر أن المهمـة ستكون شاقة..واجل التفكير فيها بصفة مؤقتة عله يجد لنفسه بـراً يرسي عليه..ليصل إلى ما يريد وهو لا يعرف ما يريد.



عرض عليه صديق المقهى "محمود الملاح" الصياد أن يصطحبوا الأصدقاء لقضاء رحلة صيد في منطقة أبي قير..لتغيير النمط الذي اعتادوا عليه مما جعلهم يشعرون بالملل من تكرار ذلك "الرتم" الشبه يومي..اصطحبه في سيارته..يختمره شعور غريب..انه سيجد في ذلك اللقاء متنفساً للخروج من أزمته التي بدت تطارده في صحوه ومنامه في الأيام الأخيرة..خاصة انه تم سن الستين في عام ١٩٨٢ منذ شهور قليلة مضت..في هذا اليوم أصابه دوار..دام ساعات..كان يشعر أن الاحتفال بميلاده في ذلك اليوم سيكون يوم مماته..وهم أم حقيقة..لكنه عاش ومازال يتنفس نسيم الحياة ملء صدره.

وصلوا للشاطئ..استقلوا لنشاً كبيراً قاده ابن "محمود" الأكبر..بدأ كل منهم يلقي بسنارته في الماء..دقق في مياه البحر ثم صرخ بصوت عالي مردداً عبارات لم تفهم بلكنة صعيدية:

–اطلع من الميه يا داود..اطلع يا خوي..هتغرق يا ولد بوي..أنا ما بعرفش اعوم يا داود..داود..داود.

ثم حاول إلقاء نفسه في الماء..فأمسكوا به في اللحظة الأخيرة كالعادة..يروح في شبه غيبوبة وسرعان ما يعود لحالته الطبيعية وكأن

شيئاً لم يحدث.



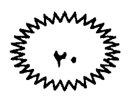

الليل..أحلام وكوابيس..دائماً هكذا عندما يتعرض لموقف غريب في حياته..وما اكثر هذه المواقف وما اكثر تكرارها منذ أن تم سن الستين..في الحلم ينادي "داود"..يحذره من أن يغرق في المياه..يسأل نفسه في الحلم من "داود"؟!..وما علاقته به..إن المياه تختلف عن مياه البحر..لونها يميل إلى اللون الأحمر..كثافة المياه ثقيلة..ينزل فيها ويحاول السباحة ولكنه لا يستطيع..لا يلحق "بداود"..ويغرق هو الآخر..ينهض من نومه مفزوعاً..زوجته "جمالات" دائماً تلومه في مثل هذه الموقف:

-جتتي اتلبشت يا سيد..حرام عليك..إحنا من أول ليلة في جوازنا..وأنت حالك حال.

يفرك في عينيه..لا يدري ما إذا كان في حلم أم في واقع..وما الذي حدث في ليلة زواجه الأولى..لم تحك له..ولكنها حكت لابنتها "رضا"..كلما تكرر أمر غير عادي أثناء نومه..مما جعل الابنة تشفق عليه كثيراً وتخاف منه أحياناً.




بعد أن أنهى عمله في ورشة "رشيدي" في يوم جمعة..طلب منه أن يصطحبه في سيارته إلى حي الانفوشي..الذي طالما يتردد عليه بين الحين والآخر..ذهبا..توقف أمام بيت خشبي قديم كان يلفت نظره في كل زيارة للحي..البيت مهجور منذ سنين عديدة ولست..عمال يقومون بهدمه..نظر إليه في حزن..ونظر له "رشيدي" في عجب..كاد يبكي..ولا يعرف سبباً لذلك..انه عرف من أبيه انه كان يسكن ذلك الحي قبل أن يتزوج في منزل للأسرة الذي هدم..لم يبق في أسرة "مليح" غيره..وأولاده الذين يحملون اللقب..طلب من "رشيدي" أن يسأل له عن هذا المنزل في مصلحة الأملاك..متى بنى ومن بناه..قبل "رشيدي" عرضه في دهشة.




جاءه الخبر..انه ملك لعائلة تسمى "القوصي"..تم بناؤه في ١٨٨٢..كان صاحبه يدعى "إبراهيم متولي القوصي"..من "قوص"..محافظة قنا..حضر ليعمل بالميناء عاملاً..واستقر بالمدينة حتى اصبح مقاولاً للأنفار بالميناء..وتزوج اكثر من زوجة ولم

ينجب..وعندما توفى..حضر أقاربه من الصعيد ليقاسموا زوجاتـــه في الميراث..ورفعت قضايا وتماطل سير أوراقها في المحاكم حتى مـــاتت الزوجات ومات اغلب الورثة عدا حفيد شقيقته ويدعى "عمـــاوي" حضر للإسكندرية واستلم البيت كميراث..وبدأ مشوار عمه..عاملاً في الميناء..واستصدر أمراً بهدم البيت ليبنيه من جديد.

كان "السيد سعيداً بهذه القصة وكأنهـــا تحـــاكي شـــيئاً هامـــاً في حياتـــه..جعلـــه يفكـــر في البحـــث عـــن جـــذور الجـــدود..في الانفوشي..ولكن الرجل الكبير الذي روى له حكاية البيت لم تسعفه ذاكرته بأي معلومات عن عائلة "مليح"..غير أنهم أتوا من الصعيد.

٢١

بدأت ابنته "رضا" تعد الخطة العملية للرسالة..الأمر يتطلب زيـــارة الأماكن التاريخية الإسلامية وكاميرا فوتوغرافية لتصوير الأماكن التي لها دلالة في دراستها.

عرضت الأمر على الأب..كالأطفال "شبط فيها"..قالت لـــه أنهـــا ستنزل بدار للمغتربات لفترة ثلاثة شهور..وقد أعدت كـــل شـــئ لذلك..وأنها ستحضر كل أسبوع لمدة يومـــين..لكنـــه صمـــم أن

يصاحبها في تلك الرحلة العملية..سيقيم معها في فندق..انه لم يـــزر
القاهرة طوال عمره..الفرصة سانحة الآن..ولكن لماذا هـــي فرصـــة
وأيضاً سانحة..لم يجد الجواب..شيئاً ما يدفعه لموافقة ابنته..ومعرفة شئ
يريد أن يعرفه..في الفجر اصطحبه معه في سيارته..نبه علـــى ابنـــه
"رضوان" ألا يتصرف إلا في الحدود المسموح له بها في المتجر..كـــان
"رضوان" سعيداً لكونه سيكون مسئولاً عن المتجر بمفرده.

وصلا القاهرة..اتجها مباشرة إلى القلعة..معها خطاب بدخول جميـــع
أماكنها..وجدت صعوبة في دخول أبيها معها..لكنه دخل..بـــدأت
تتجول في مسكن محمد علي بغرفه وأثاثاته المختلفة.

توجه الأب إلى أحد أبراج سوق القلعة ونظـــر منـــه إلى القـــاهرة
القديمة..أصابه الدوار الذي يصيبه كلما سرح بخياله..جلس في شـــبه
غيبوبة حتى أتت ابنته وأيقظته بصعوبة..شعرت أن أباها سيكون عبئ
عليها في تلك الرحلة..لم تعرف ما به وهو أيضاً لا يعرف ما أصابه.

تجولا في منطقة الحسين..راقه أحد الفنادق وقرر أن يقيـــم بـــه..ثم
اصطحب ابنته إلى أحد المطاعم وتناولا طعام الغذاء..كـــان يـــأكل
بشهية على غير عادته..ثم عادا للفندق للاستراحة..وما أن اســـتمع

لأذان المغرب..قام في خفة وارتدى جلبابه وتوجه لمسجد الحسين..وقف مدة أمام المسجد متفحصاً وخاصة مئذنته القديمة..ثم سمع أصواتاً لا وجود لها..ضوضاء وذكر وتسابيح..كأنه يوم مولد أو عيد..ثم دخل إلى "الميضة" للوضوء وما إن دخلها نظر لها في دهشة..وقال في نفسه "ليست هذه التي اعرفها..أنا متذكر جيداً شكل البلاط وصنابير المياه والدورات"..ثم دخل المسجد ليصلي ونظر للقبلة وقال أيضاً في نفسه "حتى المقام شكله تغير..اصبح اكثر اتساعاً وقد تم إحاطته بسياج من الأعمدة المعدنية"..وقبل أن يخرج من الجامع نظر إلى أحد الأسقف المجاورة لباب دخول المسجد وظل ناظراً له وكأنه يبحث عن شئ..وقال في نفسه "كان هنا توقيع المعلم محسن"..من "المعلم محسن"..ثم خرج من المسجد..وعاد للفندق انتظاراً لصلاة العشاء..بدت معالم وجهه متغيرة مما لفت نظر ابنته..حاولت أن تسأله أين كان وما الذي حدث..ولكن سرعان ما وجدت وجهه عاد لشكله الأصلي.

•

٢٢

في الصباح زيارة لشارع باب الوزير وعندما دخلاه..ركن سيارته وتركها دون أن تشعر..وسار في طريق معين دون أن ينظر يميناً أو يساراً حتى وصل لمسجد صغير عتيق "مسجد أيتمش"..أمامه عتبة صغيرة من الحجر على أحد جوانبه..توجه إليها وجلس ثم سمع أصوات باعة وشحاذين وصوت سيدة تدعو له وتقول:

-يبارك في نسلكم يا أهل ياغمور.

وراح في غيبوبة ونام..ثم فوجئ بابنته تبكي وتوقظه..ما أن رآها نظر لها في دهشة وكأنه لا يعرفها..تأكدت أن اصطحاب أبيها لها في تلك الرحلة لن يجعلها تتم ما أتت من اجله..وقبل أن ينهض نظر إلى العتبة الحجرية وقال:

-ربنا يبارك فيكي يا أم راوي..ويجعل دعاكي من نصيبنا.

ثم أفاق لنفسه واصطحب ابنته التي مسحت دموعها..ظنت انه تاه منها.

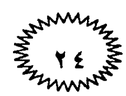
٢٣

في صباح اليوم الثالث اخذ حقيبته واصطحب ابنته الى دار المغتربات وتركها وقال لها بلسان ثقيل:

-أنا..هارجع إسكندرية..وانتي خليكي في مأموريتك..وابقي

كلمينا في التليفون لو عُزتِ حاجة.

نظرت له في دهشة وقد أصابها الوجوم..خشيت أن يسافر أبوهـا إلى الإسكندرية وحده..فقررت العودة معه إلى الإسـكندرية ثم تعـود لاستكمال مأموريتها بعد أن تكون قد اطمأنت عليه.



وصلا الإسكندرية عصراً..دخل حجرته دون كلام أو سلام وخلـد لنومه..تعجبت الأم..وحكت لها الابنة ما دار في تلك الرحلة العجيبة التي لم تستغرق سوى ثلاثة أيام.

لم يقم لتناول العشاء مع أسرته أو حتى بمفرده كمـا اعتـاد وظـل نائماً..ويهذي بعبارات غير مفهومة..تأكدت الابنة على قـدر مـا التقطته من بعض الكلمات أنها اللغة العثمانية.

أحلامه ما بين نوم ويقظة..يصحو يحدث نفسه..يتجاوب مع أنـاس يراهم..هذا الشيخ "مراحي" البدوي..خطيـب ومـؤذن جـامع "ايتمش"..كان يؤدي فيه صلاة العيد مع أخيه "كوتشوك"..يذهـب ليهنئ خالته بالعيد..ويرى "جومـوش" ابنتـها..يتبـادلا نظـرات الحب..تواعدا على الحب..ولكن "وديد".."وديد"..ويظـل ينطـق

الاسم ويصرخ.



بدأت زوجته تزداد قلقاً..يوماً كاملاً مضى وهو ما بين نومه وصحوه في شبه غيبوبة..لا يأكل..ولا يشرب..يؤدي فروض الصلاة في خشوع ويبكي في حرارة ثم يذهب لينام.

الابنة "رضا" تعد نفسها لاستكمال مأموريتها بالقاهرة ولكنها الأخرى قلقة بشأن أبيها..صرحت لها الأم بأن هذه الحالة اعترته ليلة زفافها..لم تنم تلك الليلة لما بدر منه وأخافها..كان يناديها "بجوموش"..رغم مرور الأيام إلا أنها تتذكر عباراته جيداً:

-اتحرم علينا نبقى لبعض يا جوموش..الحرب فرقتنا..ووديد هدم سعادتنا..ازاي تبقي معايا في اوضة واحدة مقفولة علينا..وأنا مش موجود من اصله يا جوموش..أنا مش موجود يا جوموش..أنا مش موجود.

حارت "رضا" في أمر أبيها بعد أن سمعت رواية أمها ليلة دخلتها..أخذت تربط الأحداث ببعضها..شارع باب الوزير..مسجد "ايتمش" العثماني الذي مر على بنائه مئات السنين وما زال موجوداً

لما ذهب إليه وجلس على المصطبة الموجودة أمامه ونام..هل زار هذه الأماكن من قبل..علماً بأنه لم يزر القاهرة إلا هذه المرة..وجهه الذي تغيرت ملامحه حتى اصبح شخصاً آخر غير أبيها..ما الأمر..وما السر الموجود في حياة أبيها.



قررت الأسرة استدعاء طبيب لفحصه..وبمجرد أن وصل الطبيب..قام "السيد" من نومه مدركاً لكل شئ حوله..تعجب من وجود الطبيب في حجرته..مما آثار حفيظته وكاد ينهر زوجته وأولاده..شعر الطبيب بحرج..وسرعان ما سمح للطبيب بفحصه..وتعجب الطبيب أيضاً حينما فحص قلبه وباقي أجزاء جسده..قال لهم انهم بصحة جيدة..بل انه يعيش بقلب وجسد شاب في العشرين من عمره مما أدهشهم جميعاً.

وقبل أن ينصرف الطبيب..حكت له "رضا" ما تعرض له أبوها في الفترة الأخيرة..وروت له التفاصيل كاملة..ونظر الطبيب إليها في حيرة..وأكد لها انه لابد من عرضه على دكتور نفساني..ثم انصرف..

قام "سيد" من سريره ونظر إليهم معاتباً وقال:

-ارتحتم..أنا صحتي بمب..بس إياكم تتكرر الحكاية دي من غير ما تاخدوا إذني..مفهوم.

٢٧

عاد يمارس حياته بطريقة طبيعية لمدة أسبوع بعد عودته من مشوار القاهرة..ما بين المحل والمسجد الورشة..واللقاء مع الأصدقاء..في لقاءه معهم..انتابته نوبة بكاء حارة..حينما علم أن "درويش" ماسح الأحذية..قد توفى مؤخراً متأثراً بمرضه..وأن أولاده قد تشاجروا مع بعض بسبب توزيع ثروته..ظل يردد في هستيريا:

-الراجل عاش مسكين..ويكتر الملايين لكن لمين..الأولاد عمرهم ما كانوا مقدرين رحلة عذاب أبوهم..زي رحلة عذابي.

كالعادة ينظر إليه الأصدقاء في حيرة لما يعتريه من حالات تخرجه عن هيبته وكينونته التي عهدوها عنه.

٢٨

عاد إلى البيت وهو يخفي حزنه..الموت شئ يؤلمه ويقلقه..ويقول سبحان الله..وصدق كلامه.."كل نفس ذائقة الموت"..وأنا تذوقته

ولكنني لم اشعر بطعمه..هل أنا حي..هل ما زلت حياً..ويخرجه من تلك الحالة..تليفون من ابنته "رضا"..يرفع السماعة في لهفة..يسألها في اهتمام عما توصلت إليه في دراستها..يرجوها أن يزورها مرة أخرى في القاهرة..يسألها تحديداً عن "الخليج المصري"..فلم تجبه..وما أن أنهى المكالمة سرح بخياله..وسأل نفسه ما هو الخليج المصري..أين يوجد هذا المكان ولماذا سأل عنه..ثم يتوجه لحجرته وتلحقه زوجته بطعام العشاء..يتناوله في تؤدة وينظر إليها في ذهول وكأنه لا يعرفها..هي..باتت تعرف مغزى تلك النظرات من خلال رحلة العمر القديمة معه..كم تحملت وعليها أن تتحمل فلا بديل لشكل الحياة معه..لها منه أولاد..تحبهم وتحب الحياة معهم..وان سئمت الحياة معه لأطواره الغريبة.

## ٢٩

سألت "رضا" أحد الدارسين في الجامعة عن المكان الذي ذكره الأب..تعجبت حينما علمت أن هذا المكان كان له وجود في القرن التاسع عشر.

قلقها يزداد على أبيها..من أين له أن يعرف تلك الأماكن وما علاقته بها..وما سر اللغة العثمانية التي يعرفها ولا

يعرف معانيها..ثم توجهت لشارع باب الوزير..وتوجهت للمسجد الذي جلس أبوها بجانبه..وشدها فضولها لمعرفة شئ.
توجهت لرجل عطار طاعن في السن وسألته عما إذا كان هناك أحد يدعى "ياغمور" في تلك المنطقة..وكانت إجابة الرجل مذهلة لها..اخبرها أن هناك بيتاً مبنياً من أربعة أدوار..تم بناؤه في عام ١٩٤٠..وكان أرضاً فضاء لمدة طويلة وكانت تسمى بأرض "ياغمور"..شعرت بدوار..إذن أبوها لا ينطق إلا الصدق..ولكن ما علاقته "بياغمور"..ومدى صلته بهذا المكان وتلك الحقبة الزمنية..قررت ألا تخبر أبيها بذلك.



عندما عادت سألت أبيها عن "الخليج المصري" قالت في تردد..أنها سألت ولم تجد لهذا المكان وجوداً من الأصل..مما اغضب الأب وثارت ثائرته مؤكداً انه سمع عن هذا المكان..ثم انصرف إلى حجرته يحدث نفسه عن هذا المكان..من أين عرفه..يتذكر أن هناك قصراً على الخليج..وعرف أن رجل كان يعد واجهته الخشبية من "فواندات" وأبواب وشبابيك أرابسك..خلد إلى نومه

وجد نفسه في المكان..يساعد رجل ينادونه أصحاب البيت بـــالمعلم "ياغمور"..والرجل ينادي طفل باسم "دميرداش"..يطلب منـــــه أن يناوله الأخشاب ليبدأ عمله في ذلك القصر..المكان كـــان ســاحراً ويأخذ بالألباب..كان صاحبه تركي وله ابنة تسمى "ألما"..كــــانت جميلة ولكنها مريضة..تذكر أن توفيت متأثرة بمرضها..قام من نومـــه مفزوعاً ويردد اسم "ألما".ثم توجه إلى حجرة ابنته وظل يبحث عــــن قاموس اللغة العثمانية..يراجع الكلمات الـــتي ينطقـــها بالتركيـــة العثمانية..فوجدها جميعاً وعرف معانيها كما قالت له ابنته وبحث عن كلمة "ألما"..فوجدها كلمة تركية عثمانية وتعني تفاحة ظل مستيقظاً حتى ميعاد صلاة الفجر وتوجـــه للمســـجد..ســأل عـــن شـــيخ المسجد..فأخبروه انه توفى الليلة..وستشيع جنازته من المسجد ظــهر ذلك اليوم..شعر بحزن عميق..مفتاح سر شخصيته..كان سيفســـره الشيخ..رحمه الله.

٣١

ترك المحل في موعد صلاة الظهر ليحضر جنازة الشيخ..مســـجياً في النعش..والنور يحيط به..بكى في حرقة ثم سمع صوته..يحذره مـــن أن يقلب في صفحات الماضي..فالشيطان دائماً ما يؤذي الإنسان بأشياء

من الممكن أن تودي بحياته وهو حي.
ودع الشيخ حتى مثواه الأخير ثم عاد إلى دكان "رشيدي" ولمح له بما يعتريه مما جعل الرجل يرتجف على اثر حديثه..وطلب منه أن يرافقه في رحلة إلى القاهرة ودون أن يعلم أحد بذلك.



"رضا"..اتصلت بشقيقها "سالم" وطلبت منه أن يقابلها في القاهرة..سافر إليها..أطلعته على أمر أبيها..خاصة موضوع "الخليج المصري" وأخبرته انه كان موجوداً وردم عام ١٨٩٦ في عهد "إسماعيل" وكان يسمى "خليج القاهرة"..وقد راقبا سوياً ما بدر من أبيهم خلال الفترة السابقة فأدركا أن أبوهما في حالة يرثى لها..وقد توجها لطبيب نفسي مشهور بالقاهرة وعرضا عليه أمر الأب..طلب الطبيب مقابلته..فأخبره انه من المستحيل أن يمثل أمام طبيب نفسي..فهو رجل عنيد ويفسر الأمور بطريقة خاصة من وجهة نظره.
بناء على ما تم عرضه على الطبيب..قرر أن هذا الأمر يتعلق بعالم الروحانيات..فالأب من المؤكد على حد معلوماتي في هذا الأمر..يستولي عليه "قرين"..قال الطبيب في حرج..انه أمام العلم

الحديث يعجز عن وصف حالة الأب..الذي يقرر أشـــياء كـانت موجودة بالفعل مثل اسمه "ياغمور"..ومـنزل "يـاغمور" الموجـود بشارع باب الوزير..و"الخليج المصري"..وطبيعة وجهه التي تتغـير كلما انتابته حالة تقمص شخصية أخرى يعلم الله من هي.

وقد رافق "سالم" أخته "رضا" لشارع باب الوزير وتقابلا مع العطـار الذي أكد لهم انه كان هناك ارض تسمى ارض "ياغمور"..لأسـرة نركية كانت تعيش هناك منذ فترة زمنية بعيدة..وانه ليس على علـم بالتفاصيل..وقد قاما بالاستفسار عن أهل الحي..ومن يعرف منـهم يؤكد لهم ما قاله العطار وليس لديهم أي تفصيلات أخرى.



أهاله أمر أبيه..تذكر أن له صديقاً كان يعمل معه في إدارة المسـاحة منذ سنوات بالإسكندرية وقد نقل للقاهرة..فقرر الذهـاب إليـه واصطحب "رضا" أخته معه.

قابله زميله بالترحاب..طلب منه "سالم"أن يساعده في الأمر الذي أتى من اجله..ذهبوا إلى مصلحة الأملاك..استدل موظف المصلحة علـى البيت ومساحته وأصحابه.."ياغمور الشكمجي"..كان يعمل تـاجراً

للباب والشباك....وقد هدم المترل والورثة بـــاعوا الأرض لرجـــل صعيدي يدعى "احمد أمين"..تاجر فواكه..ولا معلومات غير تلـــك المعلومات عند الموظف.

أسرع من البرق كان "سالم" ومعه أخته "رضا" في زيارة للبيت المشار إليه..وجدوا حفيدته وتدعى "ست أبوها" في الستين من عمرهـا..لا تتذكر شيئاً عن أصحاب البيت السابقين..قررت أن أمها ذكرت ذات مرة أن هذا البيت كان ملك رجل تركي ويدعـــى "عمـور" وكان البيت تحفة معمارية..وعادت "رضا" وسألتها عما إذا كان اسمه "ياغمور" أم "عمور"..فقالت ألها لا تتذكر الاسم بالضبط.



عادا إلى الإسكندرية سوياً وقد أصابهما الوجوم..لم يتحدثـا طـوال الطريق حتى وصلا للبيت..وقد فوجئا بوجود أبيهم في البيت في غير ميعاده المعتاد..ونظر إليهما في استفسار وكأنه قرأ أفكارهما..ونظـر لابنه وقال:

-رضا كانت في مصر عشان رسالتها..أنت بقى بقالك يومين كنت فين يا سالم.

ارتبك وقال انه كان في مأمورية في مطروح..ثم باغته الأب قائلاً:

-وطبعاً قابلت أختك بالصدفة على باب البيت مش كده..على كلٍ..انتم مش صغيرين.

ثم دخل حجرته وطلب من زوجته العشاء.

## ٣٥

استعد لرحلته..اخبر زوجته انه سيذهب ليتسوق بضاعة من المحلة وسيغيب عدة أيام..توجه للمحل..وألقى نصائحه على "رضوان" قائلاً"

-المال مالك..ملكك أنت وأخواتك..حافظ عليه زي ما علمتك..إن رجعت كان..وان ما رجعتش حقك أنت وأخواتك بما يرضي الله..أنا مش درويش..ما هنتش نفسي ولا هنتكم..كبرت وكبرتكم..أوعى تخليني زي درويش لما صاحب الحق ياخد حقه.

نظر "رضوان" إليه مندهشاً..وأكد لأبيه انه ما خرج ولن يخرج عن أصول المهنة التي علمها له.

توجه إلى "رشيدي" عصراً واستعد للرحلة..وانطلقا للطريق

الصحراوي المؤدي للقاهرة..كان "رشيدي" ينظر له وعيناه كلـــها استفسار..قال له:

-أنا رايح المشوار ده يا رشيدي عشان اشيل الهم اللي علـــى كتافي..مخلي ليلي نهار ونهاري ليل..وربنا يوفقني وارجع منه مش شايل هم فوق همي.

ثم قرأ الفاتحة..نظر له "رشيدي" في حيرة..ولكنه اعتاد عليه وعلـــى تصرفاته التي لا تبدو مفهومة..فهو يحبه من أعماق قلبه ويتمنى لـــه الخير.

حل الليل قبل أن يصلا لمنتصـــف الطريـــق..ثم توقـــف بالســـيارة فجأة..وظل يقرأ قرآن..ويستعيذ بالله من الشيطان..فقد رأى شـــيخ المسجد الذي توفاه الله..طويل وضخم الجثة..يرفع يديه ليمنعه مـــن استكمال المشوار..سأله "رشيدي" في ذهول عما حـــدث..ولمـــاذا توقف بالسيارة..لكنه استأنف قيادة السيارة..ثم تكرر نفس المشـــهد بعد نصف ساعة وتوقف مرة أخرى وكرر ما فعله في المرة الأولى من قراءة القرآن والاستعاذة بالله من الشيطان..ثم حدث نفسه وكأنـــه يحدثه:

-إيه يا مولانا..مش عاوزني أروح المشوار ليه..أنا طالب الراحة

مش اكتر..عمري ما هاعصى ربي..ولا أخـــالف الشـــرع والناموس..أنا مش عاوز غير أني ارتاح وبــــس..وأوعـــدك وأوعد نفسي إذا كان في الأمر حاجة هتخرجني عن طبيعـــتي أو مخالفة ديني..هارجع..وأتحمل اللي بيجرا لي.

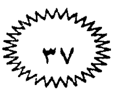
٣٦

فجراً..توجها لمسجد الحسين لأداء الفريضة..وقفا أمام الجامع..سمـــع الأصوات التي سمعها من قبل..ذكر وتسابيح..أشبه مـــا يجـــري في المولد..قال "لرشيدي" أن الجامع لم يكن بنفس الشكل الذي رآه من قبل.."رشيدي" لا يملك غير الاستماع لما يقول..عليه أن يجاريه لأنـــه ارتضى أن يأتي معه لهذا المشوار.

بعد أداء الفريضة توجها لتناول الإفطار..ثم توجها لشــــارع بـــاب الوزير..ذهبا عند الجامع وجلس..كالمرات السابقة غفا.."رشـــيدي" ينظر له في دهشة..ثم استيقظ على صوت السيدة التي تدعـــو لـــه وتدعو لآل "ياغمور".

قال "لرشيدي" انه يود أن يزور مقابر أسرته..أبيه وعمـــه..توجـــها للمكان فلم يجد المقابر..نظر يميناً ويساراً في حيرة ثم سأل أحد المـــارة

عن المقابر..قال له الرجل انه على حد علمه قد نقلت من هذا المكان وقد اخترق أرضها طريق صلاح سالم..بكى في حرقة..كان يــود أن يزور مقابر أسرته التي يعرفها معرفة اليقين..قال "لرشيدي" انه ليـس الشخص الذي يعرفه..انه ليس "السيد السيد مليح"..انه من نســل "ياغمور" ولكنه لا يعرف اسمه بالضبط..ربما يكون "كوت شوك" أو "جابوق"..أو "دميرداش".



عصراً توجها لشارع باب الوزير مرة أخرى..بدأ يبحث عن كبــار السن في الحي الذين يتذكر أسماءهم.."نــور العطــار".."مصبــاح الفواخيري".."رمسيس عبد الملك" صاحب متجر الأقمشــة الــتي كانت ترد من الشام..لم يجبه أحد..لكنه لم ييأس..توجــها لتنــاول الغذاء ثم الى الفندق..يؤديا الفروض جميعاً في جامع الحســن..ليــلاً توجها للشارع..لمح عامود إنارة قديم وقد اعتــلاه الصــدأ..هــذا العامود الحديدي الضخم المزركش..كان يلعــب أســفله في ليــال رمضان..إضاءته كانت بمصباح كيروسين..يوقــده عــامل يدعــى "بردويلي"..يمر على مصابيح الحي ليوقدها ساعة حلول الغروب.

تذكر بيت "نفادي الصعيدي"..صانع الأحذية..قادتـــه فطرتـــه إلى البيت..وجده قديماً..وقد أزيل منه دورين والباقي دوريـــن..ســـأل الجيران..قالوا له انه بيت "نفادي"..كاد يغمى عليه..تذكر أشـــياء كثيرة..سأل عمن يقطنون البيت..قالوا له "وجيدة" الخاطبة..تقيم في حجرة في الدور الأول..وباقي الحجرات مخزن "للمخللات"..الـدور الثاني مهجور.

طرق باب "وجيدة"..فتحت له بصعوبة..وما إن رأته ظلت تشـــتم بعمق وقالت:

-الريحة دي مش غريبة عليا..شمتها من زمان..ريحـــة مســـك وعنبر..أنا عارفاهم كويس..ما حدش في زمانا بيحطهم.

استأذنها في الدخول..دخل..وجدها تعيش في حجرة ضيقة..فرشـــها متواضع للغاية..قالت له وهي تتفحص وجهه:

-جاي تسأل عن إيه يا...

قال لها في تردد:

-أنا السيد السيد مليح..تاجر مانيفاتورة من إسكندرية.

قالت له في تأكيد:

-لأ..ريحتك بتقول انك مش من إسكندرية..المسك والعنبر.

اللي أنا شمتهم..لحد من سكان باب الوزير..هنـــا في مصـــر المحروسة.

ابتلع ريقه بصعوبة.."رشيدي" ينظر اليهما في ذهول..كاد يصـــاب بالدوار الذي يصاب به كلما تذكر شيئاً من الماضي..لكنـــه تمـــالك نفسه وسألها في تردد:

–انتي تعرفي الناس اللي في الحي يا خالة وجيدة.

ضحكت وقالت:

–القدام بس يا بني..أنا من أربعين سنة معزولـــة عـــن أهـــل الحي..اسمع أسمـــاء لنـــاس جـــوّزت أهاليـــهم لكـــن مـــا اعرفهمش..اصل أنا عديت المية بشوية..ناس تقـــول بخمـــس سنين وناس تانية بتقول عشر سنين..لكن العمر بعد الســـتين زي قلته..بتسأل عن مين يا بني.

بدأ يشعر بارتياح مشوب بالقلق..عاد يسألها في تردد:

–تعرفي..ياغمور.

فكرت لحظات..قالت في تأكيد:

–أمال يابني..ياغمور الشكمجي..أنا ما عاصرتهمش..اصل أنـــا بيقولوا مواليد ١٨٧٥..حضرت حرب عرابي.

بمجرد أن نطقت كلمة حرب عرابي ارتعش جسده وكاد يصبح في حالة مغايرة ولكنه امسك برأسه وتمالك نفسه وسألها:

-كان فيه حد من ولاد ياغمور اشترك في حرب عرابي؟

قالت في تأكيد:

-ايوة..أنا فاكرة كويس وكويس أوي..جابوق ابن إسماعيل ياغمور..إسماعيل كان نجار باب وشباك وأرابسك زي أبوه ياغمور..أنا ما شفتهمش لكن سمعت..إسماعيل مات في عز شبابه..وساب ولدين رباهم جدهم ياغمور..كوتشوك وجابوق..وأمهم يلدز الله يرحمها..شفتها بعد ما عمت عشان ابنها اللي راح حرب عرابي وما رجعش..الله ينتقم منه وديد..كان مفتري..لم ولاد الحي كلهم وسلمهم للجيش.

وما أن سمع كلمة "وديد" وقام وانتفض وانتابته حالة هيستيرية..امسك به "رشيدي" الذي تصبب عرقاً وكأنه يحضر جلسة أرواح..نظرت له السيدة العجوز ودهشت وقالت:

-هو ملسوس يا خويا ولا إيه..انت بتسأل ليه عن ياغمور وأهله يا خويا..صحيح أنا شميت فيك ريحة عطرهم..اللي كان بيعمله "فراس"..صاحب الحاج ياغمور..حاكم هو احسن

واحد يعمل عطور..آه أنا كنت باشتري منه عطر النرجس والفل المخلوط بالياسمين.

نهض السيد متثاقلاً..لم يستطع أن يسمع اكثر من ذلك..طلب منها أن تسمح له بزيارة أخرى..خرج من عندها و"رشيدي" يمسك به وهو يجرجر أقدامه كمن أصابه الشلل.

## ٣٨

"رشيدي"..لم ينم طوال الليل..أفزعه "السيد" بأحلامه وما يهذي به من عبارات غير مفهومة..لا يهمه أن يعرف شيئاً عما يبتغيه..يريد أن يريح الرجل لا اكثر..لم يثقل عليه بأسئلته التي جالت بخاطره..وقبل الفجر بقليل خلد للنوم واستيقظ "السيد" لاحظ عليه الإجهاد وقد علا غطيطه..ارتدى ملابسه وخرج وحده..توجه لشارع باب الوزير..الفجر يؤذن..دخل للجامع وظل ينظر إلى أركانه..لقد تغير بعض الشيء..لكن نفس الرائحة التي كان يشتمها..أدى الفريضة ثم سأل الإمام عن الشيخ..دهش الإمام كيف عرفه..الشيخ والد الإمام الحالي الذي يبلغ من العمر الخمسين عاماً على وجه التقريب.

كم سره أن يعرف أن الإمام هو والد الشيخ بدأ يسأله عن

أسرة "ياغمور"..قال له الإمام انه سمع من أبيه وجده عن هذه الأسرة تركية الجذور..حكى له على قدر ما أسعفته الذاكرة.

سأله عما إذا كان يعرف أحد عن هذه الأسرة ما زال علـــى قيـــد الحياة..دله على محامي مشهور يدعى "ســالم"..لــه مكتــب بحــي الأزهر..انطلق مسرعاً إلى هناك..انتظر حـــتى ســاعات الصبــاح الأولى..وبدأ يبحث عنه..حي الأزهر كبير ومتسع..لم يحدد له الشيخ العقار الذي يوجد به المكتب..ظل يبحث عنه ساعات طوال حـــتى استدل عليه.

صعد الدرج يقدم قدم ويؤخر الأخرى حتى وصل أمام الشقة الكائن بها المكتب..لفت نظره اللافتة المكتوب عليها الاسم "سالم إسمــاعيل كاوتشوك" قال في نفسه "كاوتشوك" أو "كوتشوك" ثم دلـــف إلى المكتب فوجد الوكيل جالساً يقلب في أوراق أمامه..حياه واســتقبله الوكيل بحفاوة ظناً منه انه زبون..اخبره أن الأستاذ "سالم" يحضــر في الثانية عشر ظهراً..انتظره..الوقت يمر ثقيلاً سقيماً..لم يحضر الأســتاذ "سالم" حسب الميعاد..سأل وكيل المكتب مرة أخـــرى فقـــال انـــه مشغول بقضية وقد تكون المرافعة استغرقت وقتاً طويلاً وفي هـــذه الحالة لن يحضر إلا في المساء..اخذ ينفخ ويزبد..وعاد في طريقــه إلى

الفندق بخفي حنين.

٣٩

اصطحب "رشيدي" وتوجها لتناول الغذاء في مطعم بالأزهر..وما أن فرغا من تناول الطعام..توجها للمنزل الكائن به مكتب المحامي "سالم"..وكان المكتب ما زال مغلقاً..فجلسا على عتبة الدرج ونظر "السيد" "لرشيدي" وسأله في تلقائية:

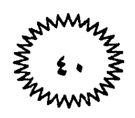
-يعني انت ماشي معايا من غير ما تقول ولا كلمة يا رشيدي.

نظر له "رشيدي" وصمت برهة..ثم قال:

-أنا باحاول اعرف..بس مش فضول مني..نفسي انك توصل لمرادك وترتاح.

تنهد "السيد" بعمق وقال في أسى:

-إيه هو مرادي؟!..لو وصلت له هاستفاد إيه؟




مرت ثلاث ساعات يتبادلان فيها أحاديث عديدة حتى حضر وكيل المكتب وفتحه ونظر لهما في تعجب وقال:

-اتفضلوا..الأستاذ على وصول.

دلفا إلى المكتب وجلسا كل منهما ينظـــر للآخـــر حـــتى حضـــر "سالم"..وما إن رأى "السيد" تسمر في مكانه ونظر لـــه في ذهـــول وقال:

-عمي عثمان؟!

نظر له "السيد" في ذهول وقال بصوت خافت حزين:

-اخويا كوتشوك.

ثم دلفا لداخل مكتب "سالم" وجلسا وكل منهما ينظر للآخر وكـأن غيبوبة أصابتهما ثم قام "سالم" بهرش جبينه وكأنه يسترد وعيه وقال:

-أي خدمة؟

فرت الدموع من عين "السيد" وقال:

-هنكدّب بعض..ولا هنكدب على بعض.

عاود "سالم" السؤال قائلاً:

-أي خدمة..فيه عندك قضية.

مسح دموعه وظل معلقاً نظره عليه وقال في حسرة:

-قضية وقضية كبيرة..قضية كيان..أنت ليه غيرت اسم أبـوك كوتشوك.

نظر له "سالم" في دهشة:

-أنت تعرفه..بس هو جدي مش أبويا..أنا سالم إسماعيل كوتشوك عمور.

في دهشة بالغة نهض من مكانه وسأله في استنكار:

-قصدك تقول ياغمور.

عاود "سالم" النظر له في ذهول وسأله:

-أنت مين بالظبط وعاوز إيه؟

قال "السيد" في حسرة:

-أنا اللي الزمان بعتني مرة تانية لدنيا تانية أنا عشتها..وأنت ما عشتهاش..أنت تعرف دميرداش؟

نهض "سالم" وقال من خلف مكتبه:

-أنت دميرداش..أخو جدي؟!..أنا عندي صور ليه كان راسمها الخواجة فانوس..وفيه صور كمان لجدي ياغمور الكبير وجدتي يلديز الكبيرة..وبرضه كان راسمهم الخواجة.

بكى "السيد" بحرقة وقال:

-يعني أنا شبه عمك دميرداش.

قال في تأكيد:

-لأ..بس أنت فيك حاجة من ريحته..مش من

شبهه..حاسس إن روحك هي روحه..مع أني ما شفتهوش.

قام "السيد" من مكانه واحتضنه في حب وفرت الدموع من عينيه كالسيل.

٤٠

"سالم" في الخمسين من عمره..هو آخر سلالة "ياغمور" أو كما يسمونها "عمور"..حسب ما كتبت في شهادة ميلاد أبيه "إسماعيل"..وكما كتبت اسم "كوتشوك" "كاوتشوك"..انقرض الأتراك..وانقرضت أسمائهم..موظفو السجل المدني يغيرون الاسم على هواهم في شهادات الميلاد..الأسماء التركية غريبة عنهم وثقيلة على لسانهم..غيروها وكأنهم يمحون تاريخ إنسانية بالكامل..هذا ما قاله "سالم" "لسيد"..الذي تعجب لفارق السن البسيط "عشر سنوات" بينه وبين حفيد شقيقه.

كان هذا الأمر شاقاً على كل منهما..كلاهما لا يصدق ما يسمعه من الآخر..اغرب من الخيال..ترى هل هو خيال ام واقع..هل عاش "السيد مليح" مرتين..مرة في شخص "دميرداش ياغمور"..وأخرى في شخص "السيد".

وقبل أن ينصرف من عنده..عرف انه تزوج ولم ينجب وهو الباقي

من نسل "ياغمور" على قيد الحياة..ثم اصطحبه معه إلى بيته ومعه "رشيدي"..أراه جميع الصور الموسومة للعائلة..وأيضاً لبيت العائلة..زمن انقضى بناسه..لم يتبق من الأسرة سوى شخص في عالم اليقين.."سالم"..وآخر في عالم غريب.."السيد".

وسأله "السيد" عن "جوموش" وعرف أنها خالة جده "كوتشوك"..وأنها ماتت بحسرتها حينما وصل لها خبر استشهاد "دميرداش" في حرب عرابي ١٨٨٢.."السيد" ولد في ١٩٢٢..أي انه انقضى مائة عام بين وفاة "دميرداش" وبين حياة "السيد" في عام ١٩٨٢ عندما بلغ الستين من عمره..تواعدا على اللقاء وتبادلا الزيارات..وقبل أن يغادر "السيد" بيت "سالم" قال له في تأكيد:

-بس فيه أحفاد غيرك لعيلة ياغمور..سالم وشهرته جابوق..ورضا ابنته وينادبها يلديز..وكوتشوك واسمه رضوان.

ابتسم وقال:

-يعني اسم سالم اتكرر في العيلة مرتين.

انتهت الزيارة..وعلى قدر ما كان سعيداً لما توصل إليه..صار تائهاً..لا يعرف من أين أتى والى أين يسير.

## ٤١

عادا إلى الفندق ولم يستطع الحراك..كأن جسده..بل عقلــه أيضــاً أصيبا بالشلل..كان يظن انه في حلم..وهل يتحول الحلم إلى حقيقــة بهذه السرعة.

ظل "رشيدي" ينظر له مشفقاً على ما هو فيه ومذهولاً لما سمعه..حتى انه شعر بالخوف الشديد تجاه "السيد مليح"..هل هــــو إنســـان أم جان..لقد روى "سالم" الماضي قائلاً:

–إن دميرداش كان نجاراً للأرابسك ماهراً..و"السيد" أيضاً نجلواً ماهراً ولكنها ليست مهنته..من أنت يا حاج سيد يا مليح؟

اتصل بأسرته تليفونياً..اخبرهم انه سيظل يومـــاً آخــر في جولتــه التجارية..ثم استقل سيارته وبصحبته "رشيدي" الذي شعر بإعيــــاء شديد لكنه خجل أن يشكو "للسيد" ما به..توجها للتل الكبير.

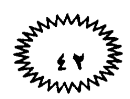
هل كان بهذا المكان مـــن قبــل..لا يظــن..أنهــا مدينــة عــامرة بأهلها..مساكنها كثيرة..المكان كان صحراء جـــرداء..اصطفــت القوات حاملة بنادقها العتيقة في مواجهة مع الإنجليز..القوات غـــير متكافئة وكانت كفة ميزان القوة راجحة لهم.

سأل بائع الفاكهة عن رجل مسن يعيش في تلك المنطقة عله يجد رداً

على استفساراته..دله الرجل على رجل كان يعمل خفـيراً نظاميـاً بقسم التل الكبير..الرجل يعيش مع أحفاده في بيت ريفـي متنـائي الأطراف ويدعى "امبابي".

اندهش الرجل من هذه الزيارة..اخبره "السيد" انه مـن المـهتمين بدراسة التاريخ وسأله عن حرب عرابي..قال الرجل ذو المائة وعشـر سنوات..ألها كانت تدور في جانب من الصحراء..اصبح الآن أرضـاً زراعية معمورة بالسكان..كان وقتها في العاشرة ويعمل مـع أبـوه "عربجي كارو" كان ينقل للإنجليز الفاكهة والخضار في "الكـامب"..لم يشاهد المعركة كشاهد عيان ولكنه سمع عنها..رجـاه "السـيد" أن يصطحبه في سيارته لهذا المكان.

انطلقت السيارة وبعد عشر دقائق وصلت للمكان..تخيل نفسـه في المكان..يمسك سلاحه علماً أنه لم يدخل الجيش من قبل..



عاد إلى الإسكندرية مخترقاً مدينة الزقازيق..وكان الطريق الزراعـي مساره..لم يفكر طـوال الرحلـة فيمـا حـدث..متنبـه لقيـادة سيارته..وبمجرد حلول الغروب..رأى الشيخ مرة ثانية يقف بنفـس

طوله الفارع وينظر له ويضحك في سخرية.
توقف بالسيارة..استعاذ بربه مـــن الشـــيطان الرجيـــم..ثم اكمـــل رحلته..وصل إلى الإسكندرية في بداية الليل..اصطحب "رشـــيدي" إلى منزله..الذي وصل إلى بيته متثاقلاً وكأنه قادم من معركة.
توجه إلى منزله وكعادته دخل إلى حجرته في صمت دون أن يتنـــاول طعام عشائه..ألقى بنفسه على السرير وظل يبكي في حرقة..قـــال في نفسه ليتني ما ذهبت..ليتني ما عرفت..هل أنا في حقيقة أم حلـــم أم وهم..أدركت ابنته انه كان في رحلة للشخصية الحائرة التي تعيـــش بداخله.

٤٣

استيقظ صباحاً..ينتابه شعور بالانهزامية أمام ما اكتشفه..لم يســـتطع تحديد ما يريده..هلْ هذه الرحلة كانت ما يريده..عرف..وهل مـــا عرفه حقيقة..ماذا أضاف إلى عمره الكبير.
توجه للإفطار مع زوجته وأولاده على غـــير عادتـــه..أكـــل مما يأكلون..أصيبوا بالدهشة..ما هـــذا التغيـــير الـــذي طـــرأ علـــى أبيهم.."رضا" تعرف انه كان في رحلة البحث عن ذاته الضائعة..التي لا تعرف هي الأخرى إذا كانت حقيقة أم وهماً..أدركت انه هـــزم

أمام ما أراد أن يكتشفه.

دخل حجرته ونام..لم يتوجه للمحل..ظل حتى صلاة الظهيرة..جلس مع زوجته..ظل ينظر لها مندهشاً..هذه المرة باغتته على غير عادتها بالسؤال:

-لقيت جوموش.

نظر لها وابتسم ساخراً وقال:

-لقيت كل حاجة ورجعت من غير أي حاجة.

عرف إن الجميع كانوا على علم بمشواره الشاق.

٤٤

قام متوجهاً إلى "رشيدي"..وجد المحل مغلقاً..أدرك أن الإجهاد أصابه من جراء تلك الرحلة التي لا ناقة له فيها ولا جمل.

ذهب إليه بمترله..وجده في حالة إعياء شديدة..ومع ذلك رحب به الرجل..ثم اختليا بنفسيهما بعد أن قدمت له زوجته واجب الضيافة..سأله في تأكيد:

-أنت عرفت إحنا كنا فين وليه يا رشيدي.

قال له "رشيدي" في إعياء:

-كنا في مكان بندور فيـــه علـــى حاجـــة..حـــاولت اعرفها..لكن ما لقتش الرد..أنا روحت معاك عشـــان باحبك..وعشان تلاقي راحتك..ويـــا ريـــت تكـــون ارتحت.

تنهد "السيد" وقال:

-مش عارف يا رشيدي يا خويا..بس أنـــا حاســـس أني مرتاح شوية.

ثم نهض وحياه على أمل اللقاء يوم الجمعة في محل النجارة.

٤٥

ذهب مساءاً إلى أصدقاء المقهى..جلس معهم وحاول يجاريهم..شـــعر هذه المرة انهم أغراب..حتى نســـــى أسمـــاءهم..شـــعروا بالغربـــة تجاهه..سألوه أين كان في الفترة السابقة..لم يجبهم..قال لهم انـــه في شوق لرؤياهم..شعر بالحرج لأنه لم يعرف كيف يناديهم..ظل يتذكر أسماءهم..بصعوبة تذكر اسم أحدهم ولكنـــه نـــادى بـــه شـــخص آخر..نظروا له في دهشة..قال له صديقه "الملاح":

-أنت شكلك أتغير أوي يا حاج سيد..أنت كنت فين؟!

على اثر هذه الكلمات انتفض جسده وسأله عما لاحظه من تغيوات طرأت عليه قال أحد أصدقائه:

-كلام الملاح صحيح..ده حتى عينيك لونها اتغير..وبشـوتك كمان بقى لونها فاتح..بقيت شبه التراكوة يا حاج سيد.

ضحك الجميع ساخرين..مما أثار حفيظته وقرر أن ينهض تاركاً لهـم المكان ولكنهم امسكوا بيده مؤكدين له انهم لم يقصدوا التـهكم أو السخرية ولكن ما طرأ على شكله من تغير جعلهم في حـيرة مـن أمرهم..لكنه لم يرد على كلامهم وظل واجماً..ثم حـدد صديقـهم "الملاح" الموعد لقضاء يوم في رحلة بحرية..وقال في تـأكيد دون أن يشعر:

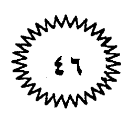
-لأ..بلاش يا ملاح.

ساد الوجوم وجوههم..ونظر له "الملاح" مستفسراً:

-ليه يا حاج سيد..أنت بتخاف من الميه.

صمت لحظة..ثم نهض من مكانه وقال في تحدي:

-لأ ما باخفش من الميه..حدد الميعاد يا ملاح وأنـا هـاجي معاكم.




اصبح ينام نوماً هادئاً..تسير حياته بطريقة طبيعية بالنسبة لأسرته التي لم تعتاد ذلك طوال حياتهم معه..تسير له بطريقة غير طبيعية..لكنــه سعيد..وكأن شبحاً كان يطارده وانتصر عليه..لا يريد أن يفكــر في تلك الشخصية التي قهرته في سن متأخرة..الشخصية الــتي كــانت على هامش حياته..ثم أصبحت تتصدرها..يــأكل ممــا يــأكلون في مواعيد الطعام التي اعتادوا عليها..هل أحس براحة بعد أن قهر تلك الشخصية المتسلطة عليه؟!

٤٧

بدأ يواظب على خط حياته المعتاد..يذهب للصلاة..يذهب للمحــل الذي اصبح نظامه يسير على طريقة "كوتشوك" أو "رضوان" لم يعــد يناديه بهذا الاسم..يعجب بطريقة ابنه في عمله..ما يحضره من بضاعة تروقه..ما ادخله على نظام البيع والشراء..لم يعد يعترض عليه..هــل يعيش بشخصيته القديمة؟..شخصية "السيد السيد مليح"..أم هــي شخصية جديدة وليدة لشخصيتين كانتــا تتصارعــان.."يــاغمور" و"مليح"؟!

قبل دعوة أصدقائه السابقة..ذهبوا جميعاً لنفس المكان..كان يضحك ملء شدقيه..يجاريهم..يأكل معهم كما يأكلون..بشراهة..قاموا جميعاً ليتباروا في سباق عدو على رمال البحـــر..تجـاوب معـــهم..بـــدأ العدو..سبقهم جميعاً..نظر خلفه لم يجدهم..شعر بخوف..هل هو معهم بالفعل أم يحلم؟..أين هم؟..هل كانوا يجرون معه؟!..رأى أمامه جثـة طفل في السادسة تطفو على صفحة الماء..جـــرى ناحيتـــها..مـــد يده..صرخ بصوت مكتوم.."داود".."داود"..وجدهم يضحكون..لم يسمعوا صرخته..لم يتحركوا من مكانهم..لم يكن هناك سباق عـــدو من أساسه..إذن ماذا حدث..هل عـــاد إلى مـــا يســـمونه النـــاس هلوسة..هل يسكنه جان..هل مسه شيطان؟!
قال لهم تائهاً:

–يا ترى لسه بتشوفوا عيني متلونـــة..وبشـــرتي حمـــرا زي الأتراك.

نظروا لبعضهم في ذهول..وكأن هذا الحديث لم يجر على ألسنتهم من قبل في المقهى الذي اعتادوا الجلوس به.
عاد إلى غيبوبته التي كان يعاني منها في سبيل اكتشـــاف شـــخصية

"السيد ياغمور" ثم باغتهم بالسؤال..باغتهم وهو يخشى أن تكـــون

إجابتهم بالنفي:

-طب مش انتم اتفقتم معايا إنكم تعزموني على الرحلة اللـــي

إحنا فيها..وإلا إحنا مش فيها.

ضحك الجميع وقالوا:

- طبعاً اتفقنا وإحنا قاعدين على القهوة.

نهض في خفة وحمد ربه وتوجه ناحية القبلة وصلى ركعتين شكر لله.

٤٩

عاد إلى البيت..مكفهر الوجه..رأته زوجته..تفهمه تماماً..اعتراه أمـر جديد سيأخذه منهم..بكت..قالت في نفسها إلى متى..كانت صـابرة طوال فترة عشرتهم..تشعر كثيراً انه شخص غريب عنها..لكنـها لم تتوان في أداء واجبات الزوجة..كانت تتمنى أن تصطحبـه لأحـد المشايخ..هذه هي ثقافتها وبيئتها التي تربت عليها..هو يرفض هـذا الأمر مطلقاً..يعرف الله حق المعرفة..لا يتوان في أداء فرائضه..رجـل محسن..كريم..لكن؟!

٥٠

عاد ليله ارق..من "داود"..كان قد نساه..شغلته شخصية "ياغمور" ثم استراح بعد أن كشف جوانب غامضة لهذه الشخصية..لا يهمه أن يكون هو "دميرداش ياغمور"..ما يهمه الوقوف عندما يشغل باله في هذه السن المتقدم..البعض يقول انه سن يضعف فيه العقل وتخور قوى الجسد والنفس..وقد اثبت أن عقله وذهنه مازالا في مرحلة الوعي التام..إذن من هو "داود" الغريق الذي يطلب إغاثته..هل هو شخص آخر "للسيد مليح"..هل هي فترة ساقطة ما بين ميلاده وبين وفاة "ميرداش ياغمور"؟!

حاول أن يحبط هذه الفكرة إحباطاً..خلد لنومه بعد أن قرأ المعوذتين ومرت الليلة هادئة.

٥١

"سالم"..ابنه الأكبر..يتحدث مع شقيقته "رضا" في أمر بينهما..ثم فاجأها حينما قال انه يشعر هو أيضاً انه عاش في عالم غريب..عالم أشبه بغابة كثيفة تطل على قصر كبير..يرى نفسه يعيش مع أهل القصر ويتحرك في حرية بينهم..هم أشبه بالرومان..لكنه لم يتمدد في تخيلاته..أو تفكيره كما فعل أبوه.

وفوجئ أيضاً بحديث أخته حينما قالت أنها عندما درست الشخصيات النسائية في العصور العثمانية..أنها عاصرت "بمبه قلدين" وكأنها من جواريها..تراها رؤية العين..تشاركها تحركاتها في القاهرة القديمة..ترتدي ملابس مثل نساء هذا العصر..قالت أن أباها يبدو انه على حق..فقد ذكر تفصيلات الخليج المصري والبيوت التي كانت تطل عليه..هذا ورد في صور قديمة رسمت وصورت لهذا الخليج الذي اصبح بعد ردمه شارع بورسعيد الآن.

ثم نظر كل منهما للآخر في حيرة لما اعتراهما من تفكير ظناً انه حالة مرضية نفسية انتقلت لهما من أبيهما..لكنهما قالا في وقت واحد لابد انه شئ من الخواطر النفسية للبشرية التي تعتبر اكثر تعقيداً..أو هو كما يقال شكل من أشكال الإيحاء الذي يسمى بالتخاطر..تمنيا أن يقولا ذلك لأبيهما..إذا كان ما يعتريه يعتبر من ذلك القبيل..اللهم..انه يعيش حالة خاصة..كثيرة التفاصيل الدقيقة التي تحمل معاني للأسماء والأماكن.

ثم قالت له على استحياء..أن زميلاً لها في الدراسات العليا تقرب منها فكرياً وانه في سبيل التقدم لخطبتها..ترى ماذا سيكون موقف الأب في ظل حالته التي هو عليها..فقد يسئ هذا الشخص فهم

الأب..إذا ما تطرق معه في مواضيع تخص دراستها الـــتي تحظـــى باهتمام الأب.

٥٢

منذ أن توفى إمام مسجد سيدي أبي العبـــاس..لم يصـــل في هـــذا المسجد..كان يؤدي الفروض في الزاوية القريبة من المحل..هذه المـــرة ذهب لأداء صلاة العشاء..لمح الشيخ المتوفي يجلس في نفس المكـــان الذي اعتاده..لم يحاول التوجه ناحيته..يعلم انه يتخيل..توجه للإمـــام الذي تولى المسجد بعد منه..جلس أمامه ولكنـــه لم ينطـــق بكلمـــة واحدة..نظر إليه الشيخ وقال:

–سيماهم على وجوههم..ويعلم الله ما في قلوبهم..وإذا كـــان في قلوبهم مرض..عفاهم الله منه.

فهم ما قال الشيخ..قال في نفسه أن هؤلاء المشايخ يقـــتربون مـــن العارفين بالله..يقرءون ما في عيون البشـــر..قـــد يعلمـــون مـــا في قلوبهم..هل هو في قلبه مرض..وأي مرض هذا؟!

٥٣

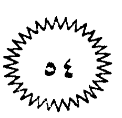
دخل إلى فراشه..إحساس يغمره بأن الليلـــة ســـتكون ذات طـــابع

خاص..استعدت نفسيته لتقبل أمر ما..قد يراه في الحلم..رآه..رجل يجلس على شاطئ النيل..خلفه نخيل كثير يمسك الناي ويغني تـــارة فرحاً وأخرى شجناً قال:

-على شط الترامسة..الميه بتتحرك بهمسة..من هواكي يا بلـدي يا صغيرة..فيكي الهوا يشفي العليل..يا منورة شط النيل..وإذا كانت ميته في عناد..والمجرى بخيره فاض..لكن البيوت دابــت وراحت ما كانت..بلاد كأنها ما كـــانت..وكـأن القيامــة قامت..ارحمنا يا رب برحمتك..ده فيضان زاد وقضـــى علـــى العباد..وفرق الأحباب..اللي غرقوا في الميه..لا أيـد امتـدت ليهم..راحوا مع أهاليهم.

نهض وقد ابتل وجهه عرقاً وكأنه كان يجري ويلهث..قال في نفسه:

-الترامسة..الترامسة..اسم مش غريب عليا..والراجـــل ده شكله مألوف ليا..هو قناوي ابن نفادي..بس الترامســة دي فين يا ربي..يا ترى داود كان من الغرقانين..وما فيش يـــد امتدت له..أنا داود ولا أبوه..ولا أخوه..واسمه إيه أبـــوه ولا أخوه..لازم اعرف..لازم اعرف.



رحلة شقاء جديدة..معاناة للبحث عن سقطة في زمنه..بلد يعرف اسمها..أين هي..شخص يعرف اسمه غير كامل "داود"..هل هو أخوه..هل هو ابنه..إنها الفترة الزمنية التي سقطت من حياته..من موت "دميرداش ياغمور" حتى ميلاد "السيد السيد مليح"..اكثر من أربعين سنة..من هذا الشخص..وهل عاش الأربعين سنة كلها..أم مات في أوسطها..أين الترامسة..أين الترامسة.

٥٥

"سالم"..يحضر خرائط الوجه البحري والوجه القبلي..أياماً طويلة يبحث ليجد رداً على تساؤلات أبيه..أين الترامسة..هل بلد موجودة بالفعل وما زالت..أم كانت موجودة واندثرت مع الزمن..أم هي غير موجودة من الأساس.

موجودة..في خريطة الوجه القبلي..على ضفاف النيل..غرب النيل..تتبع محافظة قنا..اخبر الأب الذي وضع رأسه بين يديه..كان يتمنى أن يكون الأمر هذه المرة سراباً لا اكثر..لكنها الحقيقة..الترامسة..بلد موجودة على الخريطة..قنا..محافظة

معروفة..لكنه لم يزرها من قبل.

عرف "سالم" ما يدور برأس أبيه..أراد أن يقف هذه المرة على ما يعتري أبيه في الواقع..بدأ يتيقن أن هذه المرة ليس مجرد خيالات يعيشها الأب..إذن ماذا سيكون الأمر؟!

لم يوافق الأب على مرافقة "سالم" له في هذه الرحلة إذا ما قرر القيام بها.

٥٦

ذهب إلى "رشيدي"..ما أن رآه انتابته حالة غير طبيعية وكأنه يشعر أن هناك أمراً جديداً سيشارك فيه "السيد".

ظل "السيد" ينظر له في صمت..ثم استبدل ملابسه وبدأ في أعمال النجارة..لكنه لم يوفق هذه المرة..كأنه نسى هذه المهنة..لم يعد يعرف أسماء الأدوات التي كان يستعملها في النجارة..بدا كل شئ غريباً له..مما آثار فضول "رشيدي" ليسأله:

-إيه اللي حصل يا حاج سيد..أنت مش ناوي تمارس هوايتك.

نظر له "السيد" تائهاً وقال:

-هوايتي..أنت متأكد إن دي هوايتي..وأنا اشتغلتها قبل كده.

نظر له "رشيدي" في حيرة وابتلع ريقه وقال:

-متهيألي كده.

ظل "السيد" ينظر لأدوات النجارة ويقول:

-متهيألك..أمال أنا عرفتك ازاي وليه؟!

صمت "رشيدي" برهة ثم قال في تردد:

-عرفتني عشان أنت بتحبني وأنا باحبك وخيرك وفضلـــك عليا أنا وولادي.

تذكر "السيد" انه يغدق عليه بما أجاد الله به عليه..لكـــن؟!..هـــل انتهت تلك الهواية باكتشافه شخصية "دميرداش يـــاغمور"..نجـــار الأرابسك..هل تخلص من تسلط تلك الشخصية عليه بمهنتـــه الـــتي كان يحبها؟!

ترك الادوات وخلع ملابس العمل واستدار ناحية الباب بدون تعليق وانصرف.

٥٧

قرر أن يقوم بالرحلة إلي قنا..يرافقه "رشيدي"..استقلا قطار الثالثـــة مساءاً من محطة باب الحديد..تحرك القطار..ظل ينظر له متفحصـــاً.لم يركبه من قبل..لكنه شعر أنها ليست المرة الأولى..كان القطار لـــه شكل مختلف..تسير قاطرته بالفحم..كان بطيئاً..القطار يتحـــرك الآن

بسرعته القصوى.

مع بشائر الصباح نظر يميناً..رأى مزارع القصب..لم يكن المشـــهد غريباً عنه..لقد رآه من قبل مما يؤكد ارتباطه بالمكان الذي ســيتوجه إليه..توقف القطار في محطة قنا..استقلا حنطور..سأله العربجي عـــن وجهته..قال في تلقائية..إلى لوكاندة الجبلاوي..لم يعرف لماذا ذكـــر هذا الاسم الذي لم يتذكره إلا وقتها.

بعد دقائق قليلة وصل الحنطور أمام اللوكاندة..ظـــل ينظـــر إليـــها فاحصاً..وجد أن المشهد الذي رآه من قبل قد اختلف تماماً..كـــان يوجد ترعة أمامه..ثم تذكر على الفور انه خور لاســـتيعاب ميـــاه السيول..مباني جديدة ومحلات كثيرة بجوار اللوكاندة لم تكن هنا مـن قبل..دلفا إلى الفندق..فوجده مقسوم إلى قســـمين..مبـــنى جديـــد ملتصق بالمبنى القديم..طلب من عامل الفندق أن يحجز له غرفـــة في المبنى القديم..صعد الدرج وهـــو يتذكـــر إلى حـــد كبـــير ذلـــك المكان..خاصة بـــلاط الأرضيـــات المزخـــرف بأشـــكال وألـــوان متعددة..الحجرة بنفس أسرتها القديمة المصنوعة من النيكل..نامـــا..ثم قاما وتناولا الغذاء في مطعم مواجه للوكاندة..ثم عادا إلى الفنـــدق..لم يفكر في كيفية الوصول إلى الترامسة..وهل هي قريبـــة أم بعيـــدة

سأل عامل اللوكاندة..فاخبره أنها قريبة..على بعد عشرة كيلومترات..غرب النيل..قرر الذهاب إليها صباح اليوم التالي..ولكن الى من سيتجه من أهل تلك البلدة ليتوصل إلى ما يريد معرفته..قام فجراً ليتوضأ..رأى أباه في عز شبابه يرتدي القبقاب ويتوجه للوضوء ويناديه:

-يالا يا سيد عشان نلحق نصلي في جامع سيدي عبد الرحيم القناوي.

وقف مندهشاً..إنها بلا شك تخيلات..ولكن لماذا تواجد أبوه في هذا المكان..وهل كان معه حتى يناديه للصلاة..وما سبب تواجدهم في هذه اللوكاندة..وما الداعي للإقامة بها إذا ما كانت الترامسة بلدهم؟!

٥٨

توجه لأداء فريضة الصلاة بجامع سيدي عبد الرحيم القناوي ومعه "رشيدي" بعد أن استقلا حنطوراً..دخل الجامع وشعر انه دخله من قبل..فأيقن انه له صلة بتلك البلدة..ولكن الميدان الذي يقع فيه الجامع ليس هو ما رآه من قبل..حتى المسجد من الداخل لم يكن بهذا الشكل..هل اختلطت عنده الأمور بين هذا المسجد ومسجد آخر..

لكنه يوقن انه هو المسجد الذي صلى فيه من قبل رغم التغيـــيرات التي طرأت عليه.

٥٩

ذهب إلى موقف السيارات الأجرة للسؤال عن وسيلة مواصـــلات تكون متجهة للترامسة..فلم يجد..واستقل سيارة "مخصوص" يرافقــه "رشيدي" الذي يتحرك معه في آلية.

وما أن اقتربت السيارة من كوبري قنـــا علـــى النيـــل إلا وازداد دهشة..وسأل السائق:

-هو الكوبري ده من زمان يا ريس.

قال له السائق في تلقائية:

-من عشرة خمستاشر سنة بالكتير يا حاج.

عاود السؤال وقال له:

-هي الناس مش كانت بتروح الترامسة بقارب من شرق النيـل لغربه.

قال له السائق:

-ما اعرفش يا حاج اصل أنا مش كبير زي ما أنت فاكر.

٦٠

وصلا الترامسة وسأله السائق في فضول:

-هو حضرتك رايح لحد معين.

التزم الصمت وعقدت لسانه الدهشة وقال:

-مش عارف يا بني..نزلنا إحنا هنا.

نزلا من السيارة ودخلا القرية الصغيرة فقابله رجل تنم ملامحه عن الطيبة وتقدم منه وقال لهم بترحاب:

-اتفضلوا..انتم عاوزين مين بالظبط.

لم يفكر "السيد" انه سيوضع في هذا الموقف..كل ما يشغله الوصول للمكان وقال له في حيرة:

-أنا عاوز راجل يكون كبير في السن..عشان عاوز اسأله عن ناس كنت اعرفهم في البلد دي من زمان.

قال الرجل:

-بس الأول تيجوا معايا الدار تاخدوا واجبكم وأنا هاروح معاك زي ما أنت عاوز.

٦١

دلفا لبيت الرجل الذي بدا متواضعاً للغاية..جلسا في مندرة صغيرة

تطل على النيل..ظل ينظر إلى المياه ويرجع الصوت في أذنه:

-داود..حاسب يا داود..هتغرق..الميه هتاخدك يا داود.

ثم شعر برعشة في جسده..وكاد يروح في غيبوبة..لكن الرجل نادى عليه:

-الوكل جاهز يا حاج..يا أهلاً وسهلاً..حصلت لنا البركة.

تناولوا الطعام الذي شعر انه تناول مثله بنفس المذاق..حيث كان الطعام مكون من حمام محشو بالفريك وبامية "ويكا" مطبوخة بشكل لم يره في إسكندرية من قبل..لكنه متيقن انه تناوله من قبل وبعد تناول الطعام تبادل الحديث مع الرجل وسأله عن عازف الناي..فأكد له الرجل انه كان موجوداً منذ سنين طويلة وتوفاه الله.ثم سأله عن شخص يدعى "داود"..فلم تسعف الرجل ذاكرته..حتى انه قال له لا يوجد في البلدة على حد علمه الآن أحداً يسمى بهذا الاسم..ووعده بزيارة الحاج "نبيه"..اكبر الرجال سناً في بلدهم..حيث تعدى سنه المائة وعشرة أعوام.

٦٢

استقبلهم الحاج "نبيه" وأولاده وأحفاده بالترحاب البالغ..قدم لهم

التحية وظل ينظر "للسيد" في دهشة مما آثار فضوله لسؤاله:

-إحنا جايين نسألك عن ناس كانوا هنا من زمان يا عم الحاج نبيه.

اعتدل "نبيه"وضغط بإصبعه على جبهته كمن يستعد للتذكر:

-أنا متهيألي أني شفتك قبل كده.

انفرجت أسارير "السيد" وباغته سائلا:

-معقول يا عم الحاج..ده أنا أول مرة آجي هنا.

قال له الرجل وهو يضحك:

-فيك ريحة بلدنا الطيبة..حاكم بلدنا دي هتفضل صغيرة في مساحة أرضها وعدد ناسها..أنا عارفهم بالواحد..بس الولد الصغار ما اعرفهمش..اعرف أهاليهم بس.

استراح "السيد" لحديث الحاج "نبيه" وسأله عن شخص يدعى "داود" فأخبره انه يتذكر هذا الاسم..لأنه الاسم الوحيد لشخص في بلدهم..كان اسمه غريب على مسامع الناس ولكنه لا يتذكر الشخص مما جعل جبين "السيد" يقتضب مرة أخرى..ثم سأله الحاج "نبيه" عن اسمه..فذكره له..وبمجرد سماعه لقب "مليح" صاح مؤكدا:

-مليح ده اسم عيلة كانت عندنا في البلد من زمان..كلهم هجوا على وجه بحري..كانت عيشتهم ضيقة..منهم اللي راح جاور الحسين في مصر..ومنهم اللي راح على إسكندرية.

ارتعش جسد "السيد" بمجرد سماعه اسم الإسكندرية..وسأله عما إذا كان يوجد أحد من تلك العائلة حتى الآن..ضغط على جبهته وقال:

- السنين مرت علينا كتير يا بني..الحمد لله أني فاكر..وفاكر القديم اكتر من الجديد..أنا فاكر آخر واحد من العيلة دي كان اسمه "عطوة مليح"..وابنه راح في الفيضان اللي حصل من خمسين سنة واكتر..ما كنش عنده غيره..مات وهو لسه شباب في عمر الورود..وجم أهله من مصر وإسكندرية عشان يعزوا..ومن يومها ماشفناش حد منهم..وكان "عطوة" آخر واحد من نسل "مليح" في بلدنا..اندفن في الترب القديمة اللي أخدها الفيضان كلها.

نظر "السيد" "لرشيدي" وكأنه يريد أن يقول له انه لا يهذي..فاسم "داود" ليس من صنع خياله..لكن المفاجأة أن اصل عائلة "مليح" من هذه البلدة التي شعر بحنين بالغ عندما دخلها..إذن ما علاقته هو

شخصياً "بداود"..هل حضر من قبل إلى هذه البلدة..متى وكيف..وما علاقة رؤيته لأبيه رؤية يقظة أو خيال في اللوكاندة وهو يحثه على أداء صلاة الفجر في مسجد سيدي عبد الرحيم القناوي..ولماذا كان معه في اللوكاندة طالما انهم من الترامسة؟!

٦٣

عاد وقد استراح كثيراً عن قبل..الفترة التي اعتبرها سقطة في زمنه لها أساس في الوجود..في مسقط رأس أسرة "مليح".

نام وكعادته رأى نفسه في المنام صغيراً..ولكنه غير واضح المعالم..يسقط من بيت "ياغمور"..وقع على رأسه..تهشمت عظامه..مات.

استيقظ مفزوعاً..وجد آلام السقوط تدب في كل جسده..كأنه وقع الساعة فقط..امسك رأسه وتحسسها..وجد أثراً لخسوف في جمجمته..قام يلف في الحجرة..ثم نادى زوجته وأولاده بصوت عال..قاموا مفزوعين من نومهم وهرولوا لحجرته..ظلوا ينظرون إليه ودنم واجمين..طلب من ابنه "رضوان" أن يتحسس رأسه..فعل وقال له انه يوجد اثر لجرح غائر..ثم نظر إلى زوجته التي تعرف هذا الأثر

للجرح جيداً..ولكنها لا تعرف من اين او متى حدث له ذلك..قــال في تأكيد:

- الجرح ده..قبل ما اتجوز أمكم..حصل امتى وفين..ابتديت اعرف بعد العمر ده كله..أنا عاوز دكتور يشوفني.

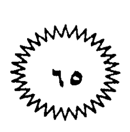
نظروا إليه في دهشة..ثم كرر طلبه مؤكداً ضرورة عرضـــة علـــى طبيب.

٦٤

فحصه طبيب جراح..أكد له انه يوجد أثراً لإصابة قديمـــة..أشـــبه "بالتربنة"..نتيجة السقوط من مكان عالٍ..عندما اخبره أولاده بمـــا يعتري أبيهم..قال لهم لابد من عرضه على طبيب مخ وأعصاب.

لم يتوان الأب عن التوجه للطبيب المشار إليه..خضع للفحص برضـــا تام..أكد له الطبيب أن ذلك الجرح قريب من مركز الذاكرة..مما قد يحتمل معه فقدانه للذاكرة للأحداث التي مرت بـــه قبـــل وقـــوع الحادث..أما بشأن ما يعتريه من أمور تبدو غير طبيعية..يجب عرضها على طبيب نفساني.

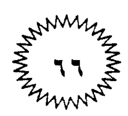
فلم يتوان أيضاً عن عرض نفسه على طبيب نفساني..انه يريـــد أن يصل لحقيقة كينونته..هل هو "سيد مليح"..أم "سيد ياغمور"



عاد البيت يتحسس رأسه..متى حدثت هذه الإصابة..ظـــل يعتصـــر ذهنه ولكنه لم يصل إلى شئ.

نام فرأى في أحلامه أمه..غير واضحة المعالم..يمسك بيدها ومعه أبيـــه ويدخلان جامع الحسين..كان يرافقهما رجل وامـــرأة..رن في أذنـــه صوت أبيه ينادي هذه المرأة "صباح يا أختي"..ثم رأى نفســـــه مــــع الرجل في ورشة نجارة ومعهم رجل يشبه الأتراك..يؤنب هذا الرجـــل على خطأ في عمله..ثم رأى نفسه يمسك بعـــــدة النجـــار ويشـــتغل بمهارة..سمع اسم يتردد على مسامعه.."وسيلة ياغمور".

نهض من نومه..قام وتوضأ وصلى الفجر ودعا الله من أعماق قلبــــه وهو يبكي بكاءً حاراً أن يساعده على تفسير ما يحدث في حياته.



المرة الأولى التي يوقظ فيها ابنه "رضوان" ليرافقه للعمل..تعجـــــب الابن حينما نـــاداه هـــذه المـــرة باسمـــه وليـــس باســـم التدليـــل "كوتشوك"..استقلا السيارة..توجها للمحل..ظل ينظر إليه في شـــجن وقال في نفسه:

– وحشتني..أنت الحقيقة اللي بتؤكد أني السيد السيد
مليح..أنا فاكر لما أبويا اشتراك من الخواجة..فاكر لما
كنت وقتها عندي اربعتاشر سنة.

ثم اطرق وبدأ يتذكر أشياء كان قد نساها تماماً..أتى من القاهرة صحبة أبيه الذي كان متأثراً لوفاة زوجته وكان يقول:

– زي ما رحنا..زي ما جينا..قالوا أمك هتروح تتعالج
عند المشايخ والناس الطيبين..لكن دي كلها
أسباب..قضا ربنا مش ممكن حد يفر منه..أنا عاوزك
تبقى راجل..وتنسى الموضوع اللي حصل لك..الحمد
لله إن ربنا نجاك.

عاد يفكر..يتذكر انه كان مع طفلة وطفل أولاد شقيقة "ياغمور"..صاحبة البيت..كانت تعلمهم كلمات تركية..كان يذهب للمدرسة ولكن لا يتذكر مكانها..كان في منتصف المرحلة الابتدائية..قال في نفسه من يكون هذا الطفل..هو "سالم ياغمور" المحامي..انه كان اصغر منه..كانا يلعبان بالطيارة فوق سطوح المنزل الذي سقط من أعلاه.

نظر إليه ابنه "رضوان" وقد بدا متأثراً..خشي أن تتفاقم حالة

والده..فض وعرض عليه الأصناف التي اشتراها للمحل..أبدى "السيد" إعجابه بها ثم ضحك وقال:

- ابن الوز عوام..يا بن مليح..أنت وأخوك سالم عليكم عبء تحمل اسم مليح..أنا لازم اجوزكم قبل ما أموت.

ثم اغرورقت عيناه بالدموع.

٦٧

ذهب ليؤدي صلاة العصر في مسجد أبي العباس..بعد أن فرغ من أداء الصلاة..رأى إمام المسجد الجديد ينظر إليه من بعيد ويبتسم..قام وسلم عليه وجلس بجانبه طالباً أن يدعو له بالشفاء مما يعانيه..قال الإمام:

- المهم انك ما بعدتش عن ربك ولا الشيطان وزك..الإنسان طالما إيمانه بربه قوي..ربنا لازم ينجيه من أي حاجة تقف في طريقه..شدة وتزول يا حاج.

خرج من المسجد ومعنوياته مرتفعة..قرر أن يضع حداً لمعاناته..والوقوف على ما يؤرقه..يجب أن يصل للحقيقة يقيناً وليس ظناً..عليه أن يتحمل ما يعد نفسه من اجل تحقيقه..يجب أن يكون

صابرا ومتحلياً بالإيمان حتى يحقق ما يربو إليه.

٦٨

توجه إلى الكورنيش وجلس ينظر إلى المياه..خشي أن يتردد الصوت الذي كان ينادي "داود" عندما ينظر إليها..حسم الأمر..أن "داود" موجود..انه أحد أقاربه من عائلة "مليح"..بدأ يتذكر انه سافر إلى الصعيد لأداء واجب العزاء في أقاربه الذين أخذهم فيضان النيل..كان في الثانية عشرة تقريباً..تذكر أيضاً انه كان من المستحيل الوصول للبلدة حتى تنحسر عنها المياه..لذا اصطحبه أبيه معه إلى "لوكاندة الجبلاوي"..ظلا فيها أسبوعاً حتى انحسرت المياه عن البلدة..كان يرافق أباه إلى مسجد سيدي عبد الرحيم القناوي..استقلا "فلوكة" للوصول إلى البلدة..لم يكن هناك الكوبري الموجود حالياً..تمنى ألا يكون له صلة "بياغمور" وعائلته..تلك العائلة التي تواجد مع من تبقى منها لمدة ثلاث سنوات على الأقل..ولكن سرعان ما انتابته رعشة فجائية..جعلته يبكي بشدة..خشي أن تعود له الحالة التي كانت تعتريه.

استعد أولاده لمرافقته للطبيب النفسي..نظر إليهم وقال:

- ما فيش داعي..أنا مسكت أول الخيط.

نظروا إليه واجمين فقال لهم في إعياء:

- أنا عاوز حد منكم يجي معايا مصر..لحد سالم يا غمور المحامي.

أبدى الثلاثة استعدادهم..لكن ابنته "رضا" سألته:

- بس إيه الداعي يا بابا.

قال لها والدموع تتساقط من عينيه:

- أنا مش مجنون يا ولاد..أنا عيان..بأشك إن الإصابة اللي حصلت لي هي السبب في اللي أنا فيه مع أني عمري ما فكرت فيها..ساعدوني من غير ما تتقلوا عليا لا بالكلام ولا السلام.

قال ابنه "سالم" متأثراً:

- إحنا كلنا تحت أمرك يا بابا..بس لو روحنا للدكتور.

قال رافضاً:

- لأ..إن شاء الله ربنا هيعني وأوصل لسبب اللي أنا فيه..

ده أنا راجل مسلم وعارف ربنا..الشيطان كان بـيزن في دماغي ويقول أني عشت قبل كده..لكن أنا متـــأكد إن اللي حصل لي بسبب الإصابة اللي في دماغي..بس..لو طلعت وسيلة ياغمور شخصية حقيقية.

قالوا جميعاً:

-وسيلة ياغمور.

٧٠

استقلوا سيارة الأب صباحاً. يقودها "سالم" وبجواره الأب وفي الخلف "رضا" و"رضوان".

وصلوا القاهرة ظهراً..ذهب الى شارع باب الوزير..قـــاموا بزيـــارة "وجيدة"..كان الأبناء الثلاثة في غايـــة الدهشـــة..عندمـــا عرفتـــه السيدة..قالت له:

- وصلت للي بتدور عليه يا راجل يا طيب.

قال لها مؤكداً:

-تعرفي وسيلة ياغمور.

على الفور اجابت:

-الله يرحمها ماتت في السرايا الصفرا.

أيقن أنها موجودة..كيف تذكرها..لا يعرف..ولكن الاسم كان يلح على ذاكرته ثم سألها عن سكان البيت..قالت وهي تحاول أن تتذكر:

-ناس من الصعيد..واحد كان نجار في ورشة دميرداش.

انفرجت أسارير وجهه:

- يعني دميرداش كان عنده ورشة نجارة.

قالت في تأكيد:

- أيوة..دى مهنة وارثها عن جد الجدود..بس يا عيني ما كانش بيخلف من وسيلة بنت عمه..وما رضيش يتجوز عليها.

ظل واجماً وكادت تنتابه نوبة الإغماء..أبناؤه شعروا الهم في جلسة تحضير أرواح..وسرعان ما عاد إلى وعيه وسألها:

- طب الست اللي ساكنة معاهم وجوزها مع دميرداش في الورشة..كان اسمها صباح.

ظلت تعتصر رأسها وقالت:

- مش فاكرة يا بني..اصلهم ما قعدوش كتير في البيت..سافروا بعد ما ماتت قريبتها..اللي كانت جاية

تتعـــالج عندهـــا..كـــان عندهـــا ولــــــد صغــــــير..في
المدرسة ويشتغل آخر النهار في ورشة دميرداش..آه أنـــــا
فاكرة كل حاجة.

نهض في خفة وصافحها وقبل يدها ثم انصرف هو وأبناؤه.

٧١

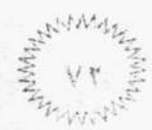
في السيارة إلى طريقهم لتناول الغذاء ظل يحكـــي ويـــثرثر وأولاده
يستمعون وكأنهم في عالم مسحور:

- دميرداش ياغمور..أنا كنت فاكرني هوه..ابن عم أبويـــــا
اللي متجوز صباح عمتي كان نجار عنده..كان دايما يحكي
له عن البيت اللي على الخليج المصري..وعن البت اللـــي
اسمها "آلما" التركية..كانت عيانة..ودميرداش حبها..وقبل
ما يخلصوا الشغل في البيت ده هو وجده ياغمور..البـــت
ماتت وقعد حزين عليها.

تأكدت "رضا" أن أبوهـــا اختلطـــت عليـــه الأمـــور في الأسمـــاء
والمسميات..اللغة التركية التي حفظ بعض كلماتهـــا مـــن "وســـيلة
ياغمور"..ظن انه فرد من تلك الأسرة..قــــد يكـــون "دمـــيرداش

ياغمور"..فانه تعلم التجارة التي أخفى سرها عنهم..وقد يكون ذلك سبب حادث سقوطه من أعلى سطح بيت "وسيلة ياغمور" وفقدانه الذاكرة لفترة..لا يعلمها. أو انه حاول إسقاط الذكريات الأليمة لمرض أمه ووفاتها ودفنها بمقابر العمة "صباح" بالقاهرة..فتشابكت الأمور عنده..ظهرت تلك الأحداث بعد أن أتم الستين من عمره..تلك السن يتذكر فيها الإنسان الأحداث التي حدثت له في طفولته..اكثر من الأحداث التي جرت في سن كبيرة.

شعر الأبناء بارتياح إلى حد ما..ثم توجهوا جميعاً لتناول الغذاء في مطعم باخسين..ثم ذلك إلى المسجد لأداء صلاة المغرب..وبعد الصلاة ظل ينظر للمسجد ويراجع ذكرياته في هذا المكان الذي أيقن انه زاره في طفولته..فشكله قد تغير مع مرور الأيام بعد إعادة أعماره عدة مرات وتوسيع مساحته.



٧٣

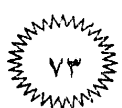
توجه "السالم ياغمور" الحاضي..قابلهم بترحاب بالغ..وطلب منه أن يراجع الصور التي رآه عنده من قبل..رحب الرجل بتلبية ما يطلب..واحضر له الصور التي ظل يتفحصها ثم سأله في تلقائية:

- الصور دي كانت عند وسيلة ياغمور.

اندهش "سالم" عندما ذكر اسم "وسيلة ياغمور"..اخبره أنها خالة والده..يذكرها حينما كان صغيراً..حكى له عن مأساتها التي انتهت بمستشفى الأمراض العقلية..حيث أنها كانت تسير في الحي تحكي تاريخ أسرتها التي أصبحت على وشك الانقراض.

ظل "السيد" واجماً..المشاهد تمر أمام عينه..يرى "وسيلة" تجلس في ساحة المنزل..تحكي له هو وبعض الأطفال عن أحداث عن أهلها..كانت تبكي أحياناً وتضحك في هستريا أحياناً..ثم سأل "سالم" عن طفل اسمه "السيد مليح" كان قد سقط من أعلى سطح منزل..على الفور قال "سالم":

- أنا كنت بالعب وياه وقتها..ونقلوه للمستشفى وماعرفش إذا كان مات ولا عايش ومانيش فاكر اسمه.



عاد الى شارع باب الوزير مرة أخرى ليسأل عن "صباح" التي كانت تقطن بيت "وسيلة ياغمور" منذ سنين عدة ولت..وجد معاناة شديدة..لا أحد يتذكر..أشار عليه البعض بالتوجه لبيت "السيد

السنان" شيخ الحارة..رجل طاعن في السن ولكن يتمتـــع بذاكـــرة قوية.

توجهوا إليه..أولاده يتبعونه دون تعليق..وكأنهم في حلم..منقـــادين ومستسلمين..علهم يقفوا على ما يعانيه منه أبيهم.

قابلهم الرجل..سنه يزيد عن التسعين عاما..صحته جيدة..ذاكرتـــه واعية..سأله عن سكان بيت "ياغمور"..تذكر الرجل قليلا وقال:

- ايوة كان في واحدة ست من الصعيـــد وجوزهـــا كـــان بيشتغل عند دميرداش النجار..واسمه حاجة مليـــح..يـــا إبراهيم مليح..يا إسماعيل مليح.

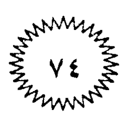
انفرجت أسارير وجهه..من المؤكد انه ابن عم أبيه..ثم ســـأله عـــن "صباح"..فقال الرجل:

- يبدو إن ده اسمها والله اعلم.

وأكد له أنها ابنة عم الرجل..فصاح في هستريا:

- صباح تبقى عمتي..وأنا وأمي كنا عندها..أمي هي الست اللي ماتت وأنا ابنها زي ما قالت وجيدة.

نظر إليه الجميع في دهشة.



طلب من أولاده العودة إلى الإسكندرية..ظل يتذكر أحداث طوال مشوار السفر..يبكي أحيانا ويبتسم أحيانا حتى وصلوا الإسكندرية ليلا.

دخلوا البيت..توجهه إلى حجرته وألقى بجسده على السرير..أولاده يتبعوه..وظلوا ينظروا إليه في انتظار أن يفصح عن شئ..طلب منهم الجلوس ودخلت زوجته عليه.

نظر إليهم وابتسم قائلا:

- أنا كنت في مصر عند عمتي..أمي كانت مريضة..أنا افتكرت إنها كانت عيانة والناس شاروا على أبويا يعالجها في مصر..أنا رحت معاها وأبويا كان بيجيلنا من إسكندرية كل أسبوع..كانت بتتعالج عند المشايخ الطيبين..اللي أنا متأكد منه أني وقعت من بيت وسيلة ياغندور..كنت باطير طيارة من فوق السطوح والطيارة جرتني لحد ما وقعت..إيه اللي حصل بعد كده مش فاكر.

سألته "رضا" في حذر:-

-يعني فيه علاقة بينك وبين أهل ياغمور.

قال في تردد:

- أنا كنت فاكر أني واحد منهم..على الأقـــل افتكرهـــم قرايب أمي..لكن أنا فاكر إن عمتي وجوزها ابن عم أبويا كانوا ساكنين عندهـــا..وكـــل الحاجـــات اللـــي أنـــا فاكرها..هي اللي قالتها..يعني شارع باب الوزيـــر أنـــا عشت فيه لفترة مش صغيرة..وأنا صغير أوي..ولا أنـــا كبير شوية..مش فاكر.

قال "رضوان":

- يعني حضرتك كنت بتحلم ولا حقيقة.

قال الأب وهو يتنهد:

- حقيقة مشوشة..مش قادر اجمع خيوطها..يمكـــن تكـــون بسبب الإصابة اللي في راس..لكن اللي أنا متأكد منه..إن أنا السيد السيد مليح.

ثم تغيرت ملامح وجهه وكذلك لون عينيه..نظروا إليه جميعا ونظـــروا لأنفسهم في وجوم..وهو يكرر العبارة في تأكيد وإلحاح:

- أنا السيد السيد مليح من الترامسة في قنا..وأنا اتولـــدت

واتربيت في إسكندرية..أنا حقيقة مش خيال..باحب مـــراتي ومراتي بتحبني..ولبا أولاد هيحملوا اسم مليح من بعــدي..لا يمكن العيلة تنقرض زي عيلة ياغمور..وباتمنى أشوف أحفـادي في حياتي بعد ربنا ما كرمني وبعد الشيطان عني.اللي كان عايز يصور لي صورة بتخالف دينا..اللهم يا رب عافينا واحســـن ختامنا وأكرمنا.

نظروا إليه جميعا والدموع قد اغرورقت في عيونهم..وقالوا في صــوت واحد:

- ربنا يديلك الصحة وطولة العمر يا حاج سيد سيد مليح.

تمت بحمد الله

٢٠٠٤/٢/١٤